-مجموعة قصصية-

التمتمات المتجمدة للغجري الأخير

-أشرف مسعي-

الإهداء:

إلى تلك الرّوح السّماوية التي تلامس الآلهة وتشاركها بياضها النّاصع، وتتقاسم مع السّماء زرقتها، وطلّتها البهيّة، وتتشابك مع الموج لترسم لوحة فنيّة وتُشاركني لوعتي باللّون.

إلى الصّديقة فاطمة الزهراء كامل

الرّقصة الأخيرة:

يتسرّبُ الحِبر عبر مسامات الجلد الضيّقة ليضيء أرواح عاشت في العتمة ويحاول طرد أشباح النّهار، يتلوّى القلم في يد الكاتب كراقصة ترقص رقصتها الأخيرة تُدير خصرها للجمهور فيغرقوا في شهواتهم، وتغرق هي داخل بركة موسيقية دافئة، تنظر إلى نفسها داخل برميل من النّفط الأسود تبحث فيه عن بياض الصباح، يحيطها اللّيل من كلّ الجوانب فتتحول قطرات النّفط إلى أمواج عاتية، تتلوّى كأفعى تبحث عن مخرج وهي تُصدر حفيف وصرخات لا تسمعها إلا وهي عالقة في ذنوبها،تظلُّ غارقة في شرودها وتُصدر صرخات مكتومة ثم تهوى كورقة خريف أخافها صرير الرّياح.

على المنصّـة يظلّ الجمهور مشدوها

يعزف لحن الموت، الجميع ينظر للجميع، ولا أحد ينظر لأحد.

الكلّ يغرق في تفاصيل لوحة "الرّقصة الأخيرة"

هذه اللّـوحة التي لم يُعرف بعد من رسمها، فقد وجدها أحد الباحثين في خيمة قديمة ومهجورة بالقرب من مدينة حاسي خليفة بواد السّوف لتحط أخيرًا رحالها في كليّة الفنون الجميلة بمُستغانم، لقد توافدت الصّحف والمجلّات للكتابة عنها واجتمع في هذا المكان كلّ عشّاق

الفنّ من رسامين وكتّاب وحرفيين ومصممين وصحفيين ليعاينوا هاته اللّوحة الغريبة عن قرب...

لا أحد يعلم لحدّ الآن سرّ هذه اللّوحة وكيف للوحة كهاته أن تُرمى في صحراء خالية، وقد نشرت أحد الصّحف المحليّة المعروفة أنّ اللّوحة يمكنُ أن تكون قد سُرقت من مكان ما ووُضعت في ذلك المكان شبه الخالي، لتهرب بعدها إلى تونس ومن ثمّة تعبر طريقها بين الأمواج إلى مدن الفنّ؛ برلين أو نيويورك أو غرناطة أو روما وتُباع في السّوق السّوداء، فهناك الكثيرون من المهتمّين بهذا الفنّ في تلك المدن الصّاخبة التي تعجّ بمعاني الحياة والرّفاهية...

كما تحدّثت صحف أخرى أنّ الجهات الأمنية قد توصّلت إلى أنّ من رسم هذه اللّوحة هو شاب من مدينة واد السّوف وضعها هُنا، ولم يخطر بباله أنّ لوحته هذه قد تكون يومًا ما موضوع السّاعة، ولم يكن يدرك مدى الحسّ الجمالي الذي تبثّه هذه اللّوحة في أعين النّاظرين لها ومدى ذلك الإحساس المرهف التي تبعثه لوحة كهذه في قلوب مُتذوقي الفنّ.

كان فقط يرسم من أجل أن يرسم ويتمتع لا من أجل أن يُمتّع، يرسم فقط ليطرد الوحش من دواخله، كأنّه يمسك سكينا حادًّا بين يديه لا فرشاة رسم، يمزّق أحلامه ويُعيد نسجها على مقاس الواقع لا على مقاسه، يقطع جسده إلى أشلاء ليُعيد تركيبها لاحقًا في ألوان داكنة

تشبه ملامحه التي لا يعرفها أحد. تتدلّى خلف الرّاقصة التي رسمها عراجين التّمر من أعلى النّخلة الشّاهقة كأنّها تلامس السماء وما بعد اللوحة، رسم الشّمس تعانق بأشعّتها الصفراء المنبعثة من السّماء وقت المساء جذوع النخلة الممتدة لتظليل اللوحة، وبجانب الراقصة شاب يُمسك بيده اليمنى سيجارة دخانها يُعانق سحابة سوداء، جالس على كرسي أسود قديم وهو يُلوح بيده الأخرى على طائر في أعلى اللّوحة وبنصف عين يبقى ينظر إلى الراقصة ، كلٌّ من حضر لمشاهدة اللوحة اختلفوا في تفسير نظرات تلك الفتى للرّاقصة... منهم من قال أنّها نظرة إزدراء، ومنهم من قال أنّها نظرة شفقة، ومنهم من صرّح أنّها نظرة توحي بالعشق وبالخوف من الوقوع فيه، ومنهم من قال أنها نظرة لامبالاة وعدم اهتمام، لأنه ينظر لأعلى اللوحة، يتأمل الطّائر..

فعلًا إنّها لوحة غريبة..

أمّا عن هذه الصّحيفة الوطنيّة فقد فسّرت أنّ الرّسام صاحب اللّوحة من هذه المدينة، نظرًا للطّابع الصّحراوي الذي تميّزت به اللوحة وأنّ النّخلة المتدلّية فإن دلت فإنها تدل على أن الرسام هو ابن المنطقة، قرأتُ هذا المقال أمام صديق لي...

فقال: ربما أقام أحد الرسامين في هذه المنطقة قديمًا وأُعجب بمناخها ومناظرها الخلابة، كما أن النخلة هنا ليست دليلًا يُسترشدُ به.

قلت بهدوء: هذا الأمر ليس مُهمًّا بقدر أهمية هذه اللوحة، فالشيء المهم هو أنّها مذهلة.

أمّا من أين أتت؟ وكيف؟ ومن رسمها؟ فهذا حقًّا غير مهم؛ فالمهمّ أنّ اللّوحة بألوانها قد أخفت جزءًا كبيرًا من قبح هذا العالم.

الفنّ جزء من الحقائق التي سيظلّ الإنسان باحثًا عنها في هذا العالم السّفلي المخيف...

النّظرة الأخيرة:

أشيّع جثمان الذكرى فتبدأ مراسم التناسي، أبحثُ عن مكان بارد دافىء كقبر، كحضن أمي، لا أعلم حقا ما الدافع الذي جعلها تخونني! لم أستطع إلى اليوم تفسير عبارتها التي تقولها بعد كل شجار بيننا "نحبّك ونكره حبّي ليك" وكأنّها تحبّني رغمًا عنها...

هكذا هي إرادة الحبّ وقوّته أن تسلِّم بكلّ شيء وتسلِّم في كل شيء حتى في قلبك وفي مفاتيحه، أن تفتح بابك على مصراعيه وتستقبل بابتسامة نسائم الحب التي ستحتل كيانك وتخرجك منك ومن هدوئك ومن سكونك الذي يشبه سكون اللّيل، السّماء المرصّعة بالنّجوم تُبارك هذا الحبّ وتضرم في قلبك ألسنة من النيران، تخطفك من حيث أنت وتُجبرك على البوح، لا تستقر الموجة الشعورية في كيانك وكأنك تحمل قنبلة موقوتة تحذف نونها، تنفجر لتشكل أضواء مدينة الحبّ، تتقاسمون بألسنتكم لعابا لزجا طازجا تتعانق على سطحه الأرواح، تمسك بيدها وتبنيان صرحًا واسعًا من الأحلام، بيوتًا وأطفالًا واحتفالات، تفكّـرون أيضا في شكل الدّعوات لحفل زفافكم وفي عدد المعزومين لهذا الحفل، في الفنان الذي سيغني لكم لتستقروا أخيرًا على أصالة وفي المكان الذي ستقضون فيه شهر العسل، في أسماء الأولاد.

قلت بصوت هادئ:

- أنّك تحبّ الذّكور لتصرخ فيَّ بقوة:

- أريد بنات، إناثًا، تحدّثها بأن تهدأ فما تلبث حتى تبدأ الغناء

يا بنات

يا بنات

يا بنات

والي ما خلفشي بنات

ما شبعشي من الحنية

وما ذقش الحلويات

فصرخت فيها:

- ألم أقل لك مرارا أني لا أحب أغاني نانسي لأنها تشعرني بالضّجر

- حسنًا حسنًا

أحسّ وكأنك يا حبيبي من القرن الماضي، أنت كائن رماديّ، تحبّ الأغاني القديمة ، أحسّ وكأنّك قطعة أثاث أو تلفاز قديم تتزين شاشته بالأبيض والأسود، نحن الآن على مشارف نهاية سنة 2020

وأنت مازلت تعيش في أوائل القرن الماضي.

- سأصطحبك الآن إلى بيتك فالوقت متأخر

- حقًا! قبل أن أنسى أين هي الهدية التي وعدتني بها؟

- حبيبتي أنت تعلمين جيّدًا أنّني أمُرُّ بضائقة مادية هذه الأيام، فهلا انتظرت قليلًا وأعدك أن الهدية ستكون بين يديك في الأيام القادمة.

- حسنًا حسنًا لنعد إلى البيت

بعد يوم من هذا اللّقاء اتصلتُ بها أكثر من مرّة، لكنّها لم ترد...

لم أرد إزعاجها فقلت عندما ترى اتصالاتي المتكررة فيما بعد ستعيد الاتصال بي، بعدها بيوم حزمت أمتعتي وسافرتُ في أمر يخص العمل ولا يستطيع التأجيل، لم أنفك على التّفكير فيها طوال هذه الأيام، اتّصلت بها أكثر من مرة فلم ترد، وفي اليوم الذي يسبق عودتي ردت عليّ بنبرة وحشية باردة:

سأتزوج غدا برجل إماراتيّ أرجو أن لا تتصل بي ثانية، ثمّ أغلقت الخطّ.

إنتابني شعور غريب وقلت في نفسي ربما هي غاضبة لأنني سافرت دون أن أخبرها، في اليوم التالي عدتُ إلى المدينة بعد انقضاء مدة

العمل، اشتريت لها هدية وقرّرت أنني عندما ألتقي بها سنرتبُ موعدًا قريبًا للزّواج، أخذت قيلولة وفي المساء توجّهتُ إلى الحيّ الذي تسكنه فسمعت موسيقى بالقرب من بيتهم لكنني لم أهتم بهذا الأمر كثيرًا، واصلت السير حتى وصلت أمام البيت لأجد الكثير من السيّارات المصطفّة أمامه، وفي مُقدّمة هذا السّرب من السّيارات سيارة من نوع أودي زينت بخيوط الزينة علقت عليها ورقة مكتوبٌ عليها "زواج سعيد" أو كما نقول بالدّارجة "كرهبة للعروس" تقدمتُ خطوة لأفاجئ بالعروس تخرج أمامي بفستانها الأبيض الطويل...

نظرتُ ثم فركت عيني، لا ليست هي عيناي تكذب... هذه أختها التوأم، لكنها الفتاة الوحيدة في بيتها، حواسي لا تخدعني إنها هي بشحمها ولحمها أنا لا أصدق ما يحدث، انهار كل شيء في لحظة، وسقطت بعدها مغميًّا عليّ لأجدني في المستشفى وأمّي تمسح على رأسي وتُدفئني بدموعها...

اللّمسة الأخيرة:

يدنو غوستاف من الآلة الموسيقية وهو يتأمّل بنظرات خاطفة جمهورا يفترس أنامله اللّينة المرتعشة.

على الخشبة تدقّ مسامير الحيرة، يجلس غوستاف بجانب البيانو يرفع غطاءه الخشبي يجرده من ثيابه، بعد ثوانٍ من الآن سيبث غوستاف الحياة في هذه الآلة الموسيقية الباردة، سيحسّ الجمهور بالحرارة التي تنفثها أنامل هذا الفتى، ترتفع الأمواج الصوتيّة، يظل الجمهور هادئا وكأنه غائب عن الوعي، يتلمس بأذنه إشارة صوتية تحلل هذه الأمواج لتشكل بحرًا من الإشارات، يمسك بأذنه شيئا غير محسوس ويرى بعينيه ضبابا لكائن مجهريّ، يَغرقُ بعينيه في عمق الغيمة الضبابية الصوتية، وكأن غوستاف يجرُّ آذان الجمهور إلى العالم الآخر، يتحسّسون حقائق صوتية لكنهم لا يدركون ماهية هذا الشّيء الميتافيزيقي الغامض، كأن هذا الصوت يرسل لهم موجة من الأسئلة، يهيمون في دوائر صامتة وصوتية غامضة، نظرتهم توحي بأنّهم منتشون بهذا الإيقاع الهائل المائل على رؤوسهم كأنها جدران طينية تُداعب قطرات النّدى...

يطفو غوستاف فوق بركة من الإشارات الكهرومغناطسية فيُرج برؤوس أنامله هذا الطّيف الصّوتي، يصفع هذا الكائن المخيف الذي يسمى بالصّوت، يكَيّفه ويُقزّمهُ بالحجم الذي يقضي بأن يتمكن الجميع من سماعه، يصل الفتى إلى شاطئ المقطوعة ويُبقي آثار رجليه على رمالها النّاعمة، تذكّـر أنّه تدرّب كثيرا على عزف نهاية هذه المقطوعة يجب أنّ يتسلل كسارق إلى عقل الجمهور وينسلّ كقطرة ماء من بين آذانهم، كقطرة دمٍ أخيرة تفارق جرحًا عميقًا، يجب أن يبقى مُتّصلا بعمق الصّوت بعيدًا عن عقم الآلة، يظل الفنان متمسّكًا بآلته كما يتمسك المتورع بآلهته، يُضيف غوستاف لمسته الأخيرة على خلطته السّحرية فلا يشعر الجمهور بتغيّر النّسق الموسيقي ثمّ يُحافظ غوستاف على توازن المقطوعة، فقد استطاع أخيرًا أن يجعل الجمهور يرى كائنًا ميتافيزيقيًّا يسمّى بالصّوت ليصلوا إلى محطة أخيرة تسمى بالنشوة الصوتية اليوفوريا (قدرة الإنسان على رؤية الصّوت).

وخُلق الإنسان ضعيفًا:

الكلمات الأخيرة، الشّهقات والدّموع والأيادي المرفوعة إلى السّماء تعانق المجهول في المقابر والمساجد والمطارات، هي كلّ ما يختزل صورة الإنسان؛ حيث لا وجود للضعف لا وجود للإنسان، متعة الإنسان في ضعفه وخوفه من شبح الآخر، في ارتجاف أصابعه وهي تمتدّ نحو يدٍ أخرى لتصافحها وتلامس جلدًا غير جلدِه، وروحا غير روحه، وتسمع أذناه صوتا غير صوته...

ظلّ يراقب بشغف نزولها إلى باحة الفندق، حاملا في يده باقة الورد التي كلفته نصف مدخراته كيف سيتحدث معها؟ هل يغمزها؟ لا.. لا هذا تصرف صبياني كان يقول في نفسه.

وماذا لو دعاها إلى الغداء هل ستقبل دعوته؟ ماذا لو انفجرت في وجهه غاضبة وقذفته بأبشع الشّتائم التي لا تقدر أذنه التي اعتادت سماع سمفونيات باخ وبيتهوفن على سماعها؟ كيف لهذه الأذن الصغيرة أن تتجرع السباب والشتائم وممن؟ من إمرأة لا يعرفها، كيف له أن يتعرف إليها، وأنْ يُعبّر عن إعجابه بها! لا لا، ليس مجرّد إعجاب وليست مجرد شهوة جنسيّة تحركها الغريزة، ولا رغبة له في علاقة عابرة لا تتعدّى حدود السّرير إنّما يرغبها ويشتهيها كما هي بكل أنوثتها

وسحرها، يريد أن يحدّثها فقط ليس مُهمًّا الموضوع الذي سيحدثها بشأنه المهم أن يكلمها أن يسمع صوتها وأن يبادلها الهمسات والأصوات والكلمات حتى لو كانت عبارات مُقتضبة، ماذا لو طرق باب غرفتها هل ستنزعج؟ هل ستطرده؟ وهل ستبلّغ أعوان الاستقبال بهذا الأمر ليستدعي الأمن؟ ماذا لو شكت في كونه جاء ليسرقها أو ليقتلها لم يتذكر إن كانت تلبس مجوهرات أم لا؟ كانت تحمل في يدها رواية دفاتر الوراق لجلال برجس هل يدقدق عليها باب غرفتها ليقول أنّه جاء ليناقشها في تلك الرواية، أم أنه جاء ليقاسم إبراهيم الوراق مصيره، ليخبرها فقط أن صورتها لا تبارح خياله، هل يكتب رقم هاتفه في ورقة ويرمي به من تحت بابها؟ لا، لا ليس بهذا الشّكل إنّه تصرّف جريئ لكنّه جبان كان يقول في نفسه...

أيّة إمرأة هذه كأنّها تحمل جمال العالم فوق جناح الصّمت الذي تلفّ به نفسها، ها هي تتقدم نحو موظف الاستقبال في خطوات واثقة كما لو أنها تتأهب لحربّ، أي ثقة في النّفس تتحلى بها راح يراقبها وهي تتحدث بصوت خافت إلى موظف الاستقبال.

آه لو كنت مجرد موظف استقبال فقط، مجرد موظف ظل يردد في داخله والغيض يمزق كيانه!

لكنّني طالب أدب أحفظ الشّعر وأكتبه، أقرأ الروايات وأحتفظ بوريقات أخط فيها جميع الاقتباسات والأقوال المأثورة والمراجعات

التي تبدو لي سخيفة لا ترقى إلى مستوى ولا إلى أحجام النّصوص التي أستمتع بتصفحها لكم، أنجل من نفسي حين يسألني أحدهم لماذا لا تكتب رواية كم هي صعبة ومضنية الإجابة على هكذا سؤال، كيف أكتب رواية وأنا جبان أمام إمرأة ولم أستطع حتى التقدّم للتحدّث إليها؟ كيف سأصمد أمام الشخصيات التي سأكونها جميعا؟ كيف سأضع لها بطلا وكنت دائما خاسرا في كل صراع أو نزال أخوضه؟ كنت دائما منهزما وأرفع راية الاستسلام قبل أن أبدأ المعركة أنا واثق من خسارتي الدّائمة أو يكون بطل الرواية الذي تحثونني على كتابتها خاسرا حتى قبل أن يبدأ؟ أنا عاجز عن فعل أي شيء لا أجيد سوى النّظر والتّأمل والانتظار عاجز حتى على النّظر في عيني هذه المرأة، فكيف يا ترى سأعرب لها عن إعجابي هل أحدثها عن الشعر؟ لا، لا.. يبدو أنّ الشّعر يروقها؛ فرغم ما تبديه من رقة ورهافة إلّا أنّها صارمة، ما هذا الإحساس الغريب الذي يجتاحني خوف تزاحمه الرغبة، هلع يصاحبه الحلم والخيال والطمع بالظفر بأنثى كهذه تشبه السّماء في ليلة مقمرة، ما اللغز الذي تخفيه وراء هذا الوجه البريء؟ ما السرّ الذي يحتجب خلف شذرات ابتسامة توزّعها هنا وهناك كأوراق اليانصيب على عمال الفندق؟ هل أحظى بإبتسامة أو بمجرد اِلتفاتة؟ هل يتعثر الحظ بي هذه المرة فيجدني أمامه واقفا مترقبا متأهبا أعد الدقائق والثواني لفرصة كهذه؟

وبينما هو يفكّر عن طريقة أو طريق يسلكه لقلب هذه الملاك وقد أضحى التحدث إليها هاجسا يؤرقه ويعصف بمخيلته التي تكاد تتشظى، فصورة هذه المرأة لا تكاد تبارح عقله صباحا ومساء.

دلّه النّادل بعدها على المقهى فوجدها جالسة لوحدها في الزاوية وهي ترتشف من كوب القهوة الموضوع أمامها، دون أن تعير اِهتماما لأحد، راحت تشاهد الأطفال من زجاج النّافذة وهم يلعبون ويتأرجحون في حديقة الفندق وتنظر بين الفينة والأخرى إلى عقارب ساعتها اليدويّة كما لو أنّها تنتظر أحدا لم يأتِ، راح يدور حول نفسه كالمخبول وصورتها لا تفارق عيناه.

ما الذي تفكّر فيه يا ترى؟

واستجمع كلّ قواه وتقدّم نحوها بخطوات هادئة ورأسه مطأطئا ينظر إلى القاع وأنفاسه تكاد تخبس في حلقه، ما عساه يقول لها وراحت خطواته تخرّ وهو يتقدّم نحوها ببطء شديد كأنّه يتقدم نحو حتفه، حتّى أنه اصطدم بطاولة وأوقع كل كراسيها وأثار ضجة كبيرة حوله ولم ينتبه إلى أن كل الجلوس راحوا يراقبونه في صمت مستغربين من تصرفه المتهور، وما إن صار بجانبها وتلاقت عيناهما حتى راح يهمس لها بصوت لا يكاد يسمع: - مرحبا أنا ميشال ومدَّ يده نحوها مصافحا.

تسمّرت في مكانها تنظر إليه، هل تمدّ يدها لتصافحه من يكون هذا الشّاب وراحت تقلب صفحات ذاكرتها التي أصابها التّلف في السّنوات الأخيرة من يكون هذا الشاب، هل التقته سابقا؟ هل هو أحد أقاربها أو معارفها؟ ما هذه النظرة الغريبة التي يرمقها بها يكاد يجرّدها من كل شيء إلا من الصّمت؟ هذه الديانة التي اعتنقتها منذ وفاة زوجها ديانة الصّمت التي أكْسبَتها وقارا وهيبة وجمودا اتجاه كل ما يحيط بها من أشخاص وأحداث يوميّة، لا تكلّم أحدًا إلّا إذا استدعت الضّرورة، لذلك من يكون هذا الفتى؟

ميشال مي شال راحت تنطق كل حرف من اسمه على حدي لكن ذاكرتها لم تسعفها.

في الأخير مدت يدها نحوه معربة عن استغرابها..

وراحت تقول في نفسها:

أأقول له مدام جيوفان

أم أكتفي فقط بذكر اسمي

مرحبا أنا فيرجينيا وتشكلت على ثغرها ابتسامة أفقدت ميشال توازنه ونفسه وكلماته.

وراح بعدها يتلعثم:

- كيف حالك يا آنسة؟

- الحمد لله، عذرا لم أتذكر أنني اِلتقيتك سابقا من أنت؟

- أنا لا أحد ميشال فقط كل ما أريده أن أن لا شيء.

- لم أفهمك سيد ميشال

- كنتُ أريدُ أن أقول هذا الورد لك

- وردٌ بمناسبة ماذا؟ كيف سأقبل وردا من شخص لا أعرفه؟ وراحت تضرب الأرض بحذائها وتلمس حافة الطاولة بأطراف أصابعها، لا تدري ما تقوله لهذا الشّاب الذي بدا لها غريبا خجولا وجريئا ووسيما وغبيّا بعض الشيء.

- هل تسمحين لي بالجلوس لأوضح لك الأمر؟

- تفضّل لكن أي أمر هذا الذي ستوضحه لي؟

- أنا رأيتك في الفندق

لم يجمعني بك لقاء سابق

أنا.. أنت فاتنة

- شكرا هذا من ذوقك، لكنّك لم تقل لي بعد ما الذي تريده ما الأمر الذي ستحدّثني بشأنه؟

- آآ بصراحة يا سيدة

يا آنسة فير فير عذرا نسيت الاسم

- فيرجينيا

- نعم فيرجينا، إنّي معجب بك منذ رأيتك للوهلة الأولى.

ولفظها كأنّه يلفظ بحرا عالقا بداخله

وراحت وجنتاه تزدادان احمرارًا وعيناه تذبلان، ورأسه يميل نحو الأسفل كما لو أنه يقع منه ولم تعد رقبته قادرة على حمله...

نسيان النّسيان:

تجتاحُني رغبة عارمةً للخروج والتسكّع في شوارع المدينة ومسالكها الضيّقة التي تنتشر على حوافها أشجار الصنوبر البري، إنّها الثّانية عشر ليلًا والمدينة ميتة في مثل هذا الوقت، الدّكاكين مغلقة فأختار زاوية يتسرب إليها ضوء الإنارة العمومية وأندفن في عمق صمت رهيب، يختلجني شعور غريب، أغمض عيناي فأشعر بنسيم الصيف الدافئ يلامس كل قطعة في جسمي...

أتذكر جيداما، حدث في ذلك اليوم الرّبيعي المشمس عندما أراد صديقي يومها أن يركب سيارته ويبتعد عن ضوضاء المدينة وينسحب بعيدًا نحو الجبل الذي يقع على بعد خمسة كيلوميترات من هذا المكان، فقد كان مولعا بالصيد أراد أن يخيم ويمارس طقوسه الجنونيّة، وفي طريق العودة انقلبت سيارته، هذه الفاجعة وهذا الحادث قد غيَّر من حياة صديقي وقلبها رأسا على عقب، فبعد العملية الجراحية الصعبة التي أجريت له، قال الطبيب أنه نجى من الموت بأعجوبة كبيرة وأنه لن يعود كسابق عهده، كنت أزوره كل يوم في غرفة الإنعاش، بعد خمسة عشر يوما من الحادث الأليم استيقظ من الغيبوبة، لكن الطبيب بعد معاينته قال أنه أتلفت ذاكرته ولن يتذكر أي شيء كما أنه لا فائدة من بقائه في المستشفى، وكأنّني أجلس مع إنسان لا أعرفه

فقد بذل قُصار جهده لتذكّر اسم والدته أو ابنه الرضيع أو زوجته، استمرّ هذا الوضع سنة كاملة لكن دون جدوى وسعى جميع أفراد عائلته وأصدقائه المقربون لمساعدته على التذكر وبذلوا قصار جُهدهم، حاولوا أن يبعدوه قدر الإمكان عن الفراغ الذي يعيشه لكن هذا لم يُجدِ نفعًا، استخرجت زوجته من الخزانة جميع ألبومات الصور لكن دون جدوى.

هو لا يشعر بأيّ شيء اتّجاهها، فبالنسبة له هي امرأة غريبة لا يعرفها، قامت بمرافقته إلى عيادة الطبيب النفسي، لكنه قال أن المشكلة ليست نفسية بل هي عضوية، النسيان مرض قاتل، ورم خبيث، حاول جاهدًا أن يتذكر، قمت بمرافقته أيضا إلى الأماكن التي جمعتنا وإلى أحاديثنا المطولة لكنه لم يتذكر أي شيء شعرت بالحزن من أجله، وانهمرت دموعه، وضرب برأسه على الشجرة، رحت أهدّئ من روعه ولم أجد الكلمات التي تصلح لمواساته، أتذكر فقط أنني قلت هذا قدر الله لا يمكننا الوقوف في وجه الأقدار هذا حكم إلهيٌّ وحلك الوحيد هو الصّبر..

كم هو مؤلم أن تجد نفسك في مكان لا تعرف عنه شيئا ومع أناس لا تعرفهم لكنهم يعرفونك، لا تعرف أمك ولا ابنك ولا زوجتك تحس ببرودة فاضحة اتجاه نفسك واتجاه عائلتك، تجد نفسك ضائعا في سلطة الزمن وفي ظلام دامس داخل غيمة سوداء، لا تعرف من أنت؟

ومن أين أنت؟ ومن هؤلاء الذين من حولك؟ تجد نفسك تائها في أعينهم، تبحث عن خيط يوصلك إلى حقيقتك، تقرر أن تبقى وحيدًا تتجول في شوارع المدينة، يُسلم الناس عليك "مرحبا يا سي فلان... اتفضل أشرب قهوة، تقول شكرًا... لكنني لم أستطع التعرف عليك، حتى لو عرفتني بنفسك فلن أتذكرك...

هرب منك الزمن، تتخيل نفسك شجرة يجلس الناس تحت ظلها ولما يعودوا بعد سنوات يُعيدون أحاديثهم ويسترجعون تحتها ذكرياتهم، يُلملون جراحهم ويشدونها إلى أغصانك وأنت لا تتذكرهم، أصبحت كائناً لا يحتاج إلى لغة، كشيء تتزين به الطبيعة، تحتفل عائلتك، يتزوج أفرادها أخواتك وإخوانك، يموت بعضهم، والبعض الآخر ينجب أطفالا، وأنت صرت تعرف أنهم من عائلتك لكن لا شيء يجمعك بهم، الماضي غائب عنك، والمستقبل مبهم، كل شيء يسير إلى الهاوية وإلى الضياع...

أنت ضائع منك وعنهم، فقد اهتمّ الجميع بتفاصيل حياتهم اليومية ولم يعد أيٌّ منهم يهتم بك ولا بمرضك، مؤلم جدًّا أن تكون كقطعة أثاث قديمة في البيت، كلعبة أطفال كبروا أصحابها عنها ولم يعد لوجودها أي فائدة، كصنم أو بالأحرى كروبوت سخيف، كم هو مؤلم أن يقص عليك الناس ذكرياتهم وتفاصيل حياتهم وماضيهم المليء بالمغامرات، وأنت لا تعرف شيئًا عن ماضيك، يقصون عليك

ذكريات أحداث تجمعهم معك فتبتسم لهم ولا تقول شيئا، تكتمُ وجعك وتسربُ لهم ابتسامة تتصنعها كي لا تزعجهم وتنقص عليهم فرحتهم..

تنتفي إلى غرفتك وتتقوقع على نفسك، تُلقي بجسدك المنهك في الفراش تتمنّى أن تغط في نوم عميق لا تستيقظ منه أبدا بعد ذلك، بعدما أيقنت أنه ليس لوجودك أي معنى، لا تريد أن يشفق عليك أحد أو تكون سببًا في حزنه، تندفن في الوسادة فتُغرقها في سيل من الدموع ثم تنهض لتجلب ألبوم الصور فتتفحص الوجوه ولا تستطيع التعرف على أي واحد منهم، ثم تقرر أن تحرقه لأنه يسبب لك وجعًا عظيمًا، كأنّه دليل على إخفاقك في التذكر، الشيء الوحيد الذي تتذكره ولا يكاد يفارق تفكيرك هو النسيان، فنسيان النّسيان أمر مستحيل، نهضتُ صباحًا على وقع خبر نزل كالصاعقة فوق رأسي، مفاده أن صديقي وضع حدًّا لحياته وانتحر بطريقة وحشيّة، فقد أطلق النّار على نفسه، وجدت بجانبه ورقة كتب عليها ربما هذه هي الطريقة الوحيدة للتذكر كل ما أردته من هذا العالم، ومن هذه الذاكرة المتوحشة أن أنسى النّسيان، لكنَّها أبت ذلك... وكرّرها مرّة أخرى نسيان النّسيان أمرٌ مستحيل.

أعتذر من الجميع، ممّن يعرفونني ولا أعرفهم، ممّن لا يعرفونني ولا أعرفه.

فراشة وأكثر من لون:

نتمادى في الصّمت ونندفن في عمق كلامنا الذي لا يستطيع أحد آخر فهمه غيرنا، ينعتُنا الناس بالمجانين والمعتوهين والمتخندقين على أنفسهم وبالكسالى أحيانًا، وبالجبناء في أحيان أخرى، بالهاربين من الحياة وآلامها وجراحها وقسوتها، لا يعرفون ماهية هذا العالم الذي نعيشه ويعيش فينا، الكتب في نظرهم مجرد أوراق كتبها معتوهين مثلنا يبيعون الوهم الموسيقى، في نظرهم أبواق للشَّياطين والرّقص صفة نتّسم بها العاهرات وبائعات الهوى، في نظرهم نحن كائنات غبيّـــة تخاف الحياة، بينما هم يفهمونها ويجارونها، الحياة حسبهم مال وسلطة ولن يتوانوا للحظة في سفك الدماء ليظفروا بالكراسي أو بإحدى بنات النبلاء الأرستقراطيين، الورق جناح لطائر من الجنة يرفعنا عاليا، نحن كائنات حبرية وبحرية، نستلهم من البحر السكون والغرابة والغموض نعشقه ونخاف ليله الدامس وأمواجه المتلاطمة على حوافنا، نرنو إلى السماء ونلامس غيمها وسحبها، زرقتها وشمسها، قمرها ونجومها ونرتفع معها نحو أحلامنا حتى نغدو مُنتشين بطيفها الذي نرسمه على ألواحنا وترفرف أشرعتنا على ظل نسيمه... نحن جزء من الحقيقة المتوجسة التي يهربون منها نحو حياة مزيفة ستنقلب عليهم، أما نحن فنخدعها ونعيشها مرتين أو أكثر من خلال الورق.

قرّر كريم أن يندفن في حجرته المعتمة دون أن ينبس ببنت شفة، لم يجلس للعشاء مع والده تلك الليلة وانقبر في دوامة من التساؤلات من تكون تلك المرأة التي وجدها مع أبيه في حديقة الفندق الذي يعمل به؟ هل حقا كان يُقبلها أمام مرأى الجميع؟ نسي ما ذهب ليخبر به والده وعاد للغرفة بعيون غائرة تحف جوانبها هالة سوداء وجلس يخمن ويضرب أخماس وأسداس وأسباع، دخل في جوف معادلات عقيمة، رفع رأسه عاليًا ونظر إلى صورة والدته دون أن ينطق بكلمة تذكر صوتها، مشيتها، كانت تأتيه في مثل هذا الوقت بفنجان قهوة ساخن يُدفئ أمعاءَه ليعود ويغرق في قراءة كتبه أو في نظم أبيات شعرية، انهمرت دمعة من خده فلم يستطع منعها، دمعة ساخنة لكنها جعلته يرتجف ويتلوى في مكانه كأفعى تصدر حفيفًا مكتومًا، تذكر أمه التي توفيت قبل أسبوعين من الآن، صارعت السّرطان الخبيث طويلًا، بألوان الزّاهية كانت ترسم أجنحة الفراشات، كانت تلك الهشاشة التي تسبب فيها المرض ترُغمها على الاندفاع في داخل ألوانها الزيتية وفرشاتها السّحرية الأكثر هشاشة منها، لم تكن ترسم شيئا غير فراشات الربيع، تختال بين الأزهار وتضع أجنحتها وترسو على متن لوحة الربيع التي ترسمها الطّبيعة، ترسمُ كائنات مرهفة مثلها تمامًا، فالفراشات تشبهها إلى حدّ بعيد، كانت لمساتها وهي تمسح على شعري أعذب من النسيم وأخف من الماء، كأنّها تعبث بأحد لوحاتها

وكانت تقول أنني هدية من الله والقدر إليها من هذا الرجل الفض الذي كان أبي نعم، لا أحس أمامه الآن بأي شعور كانت أمي تشفق عليه لم تكرهه قط... كانت تعلم أنه لا يدري ما يفعله كائن يجري وراء شهوته وملذاته فقط، لكنه يحمل صفة غريبة جدا وجهه شاحب طوال الوقت، بشرته سمراء داكنة وأنفه طويل كنقار خشب أو نخرطوم فيل، يمتلك عينين سوداوين كبيرتين ورغم كبر سنه إلا أنه كان قوي البنية وكل قطعة من جسده تظهر لوحدها، خاصّة صدره، أمّا ظهره فلم يحدودب بعد، بالرّغم من أنه على مشارف النصف قرن، كان يمشي منتصب القامة يدعوه الجميع باللاجودان المتعجرف، عمل لأكثر من خمسة عشر سنة في صفوف الجيش الوطني وتزوج بأمي وهو ابن العشرين شتاءً، بعد سنتين فقط من التحاقه بصفوف الجيش، كانت أمّي تقول أنّــه من رغم زواجهما لم تتعرف على زوجها إلا بعد سنوات، فهو يعيش بعيدًا عنها طوال الوقت وكان أيضًا قليل كلام وعند عودته كان يشبع شهواته ويرمي لها النقود، ثم يعود لعمله، حتى في العطل كان يقضي يومين فقط في البيت ثم يغادر، كانت شكوك أمّي صادقة كونه يخونها، عاشوا في بيت واحد وعلى فراش واحد لكنهما كانوا غريبين عن بعضهما، وكان أبي يريد أن يتزوج ابنة عمه، لكن الأهل رفضوا هذا الزواج

لأن هناك خلاف بين جدي أي أبوه وبين عمه حول مسألة الميراث فلم يرضَ تزويجه بابنته.

أراد أبي أن ينتقم من العائلة ومن عمه ومن نفسه، حتى لأنه لم يستطع أن يهرب بالفتاة كما يفعل العشاق المتيمون ويتزوجها رغم أنفهم، لأنه كان رجلا محافظًا على التّقاليد... 'هاهاها' محافظ ويخون زوجته، هكذا هي التقاليد والمحافظة نسبية متغيرة.

أنا ابن انتقام شرعي وأمي زوجة منتقم لا ذنب لها سوى أنها وافقت على الزواج به، الذي كان في الأساس رفيق دراستها، فينتشلها من الفقر وتترك المجال مفتوحًا لأخواتها البنات التسعة ليتزوجن لا يكف الناس هنا عن الإنجاب برغم الفقر المدقع، المهم أن يفرغوا شهواتهم وينجبوا أولادًا ويحملون اسم العائلة بعد خمس ثوانٍ من ميلاد هذا الطفل، ينتزعون منه حريته ويسرقونها منه بابتسامة، بخدعة تسمى الاسم واللقب ثم يتواصل هذا الحفل البهلواني على سرك الحياة...

وبعد تقاعد أبي من الجيش راح يعمل نادلًا في أحد الفنادق القريبة، كان يُشغل نفسه بالعمل على الرغم من أنه لا يحتاجه، أمّا الصّفة الغريبة التي يتسم بها هذا الرّجل، أبي البيولوجي أنه يستشعر الخطر على بُعد آلاف الكيلومترات بل الملايين، كان يحلّل كل شيء بدقة خاصةً أمور الحرب، حتى أنّه استشرف على ما سيحدث بعد الربيع العربي، كان يقول دائما أن السلاح هو أول شيء يُوضع على طاولة

المفاوضات وأن وقف إطلاق النار هو آخر شيء قبل أن تبدأ عاصفة رصاص أخرى أشدُّ فتكًا، علاقته غريبة بالرصاص والبارود التي كانت تفوح بها ملابسه، كان يقول أن الرصاص بالنسبة إليه هو الذهب، صاحب الرصاص هو مالك كل شيء، هو مالك أرواح الناس على الأرض؛ لأنّ الإنسان كائن يعيش حياته خائفًا ومُرتابًا على الدوام، يقول إنّ الرصاص يحلُّ أي مشكلة مهما كانت صعبة، كان رجلا حربيا بالأساس، تورط في حرب الإبادة سنوات العشرية السوداء مع جنرالات معروفين ونفَذ أكثر من عملية اغتيال، كان يصف الحرب على أنها أكثر المغامرات جنونًا، فأنت تُقاتل شبح الموت كل يوم، تُصارع موتك وتتشبث بكل ما أوتيت من رصاص وحكمة الحياة عليك بالاختباء جيّدا وأن تعرف الوقت الذي تطلق فيه رصاصك وأن تقتل غريمك الذي لا تعرف عنه شيئا تقتل فقط، من غير أسئلة تُطلق الرصاص تقتُل أو تُقتَل، كما أن الحرب ستُعرفك على أصدقاء البارود والرصاص والزناد والحرب، هم الأكثر صدقا ووفاءً، لأنّ الجميل الوحيد الذي سيُسددونه لك هو إنقاذك من الموت، ففي كل مرة سيحذرك أحدهم من رصاصة شاردة وقد يدفع نفسه أمامك كي تصعقه رصاصة، لكن صديقك الموثوق هو سلاحك ورصاصك وعينيك التي يجب أن لا ترمش أبدًا، عليك دائما أن تبقى متيقظًا وتبقي عينيك مفتوحتين...

كنتُ أتقزز كلما كان يتحدث أبي عن الحرب، كنت أعلم أنهم يستعملونهم كمبيدات حشرية يستعملها الجميع لكن في الحقيقة هم يكرهونها ويشمئزون منها لأنها تبقى في الأخير مبيدات حشرية، كانت الحرب تشتعل في أبي وتضرم نيرانها وتحرق قلبه بألسنتها.

دخل البيت تلك الليلة ووجد الباب مفتوحًا، كنت داخل غرفتي أغرق في شرود وأنظر نحو العتمة، تنقرُ قطرات المطر على النافذة وضوء الإنارة العمومية يزيد من لمعان تلك القطرات فتظهر كأنها مجوهرات ثمينة، كنت قد انتهيت من قراءة رواية ظل الريح لكارلوس زافون واندفنت في موكب صمت رهيب وراحت بحافله تطوق كل جوانبي، حاولت أن أطرد ما رأيته صباحًا في الفندق من مخيلتي، دفعتُ عني ذلك المشهد بكل ما أوتيت من قوة لكنه لم يبرح مخيلتي أبدًا، أبي يُلثم تلك النّادلة بقبلة على ثغرها الأشبه بفوهة أنبوب صرف صحّي، أمّا ابتسامتها فكانت تشبه ابتسامة أفعى لفريستها وقد وقعت في يدها، فتح أبي باب الغرفة ودلف دون أن يدق الباب...

كريم انهض، أريدُ أن أتحدث معك في أمر مهمّ..

تظاهرتُ بالنوم، ثم نهضت وتصنعت ابتسامة ماكرة ظننه سيحدثني عن تلك العاهرة التي رأيته يُقبلها في الصباح، قُمت من فراشي وجلست على كرسي وقابلت النافذة ورحتُ أشاهد من خلالها

قطرات المطر وهي تتجمع في بركة وتنقر النافذة فتُصدر مقطوعة موسيقية.

نعم أبي، تكلم أنا أسمعك ما هذا الأمر المهم الذي تود قوله في مثل هذا الوقت المتأخر؟

عزيزي كريم أريدك أن تعرف أني أفكر في مصلحتك قبل كل شيء وأنت الآن شاب يافع عليك أن تعمل وتجني نقودا وتضمن مستقبلك..

قلتُ متهكّما، ومن قال أنني أريد أن أعمل؟

استمر في كلامه:

يا بني أريدك أن تضمن مستقبلك وأقترح عليك أن تلتحق بصفوف الجيش الوطني ومستواك الدراسي سيُؤهلك لأن تتبوأ منصبا مهمًا..

قلتُ في نفسي لن أبرح هذا المكان لا لشيء إلا لأنّ جدرانه تعبق منها، رائحة أمّي لا أريد لهذا المكان المقدس أن تطأ عليه قدم تلك العاهرة التي رأيتك تقبلها، سكتت لبرهة، ثم قلتُ أريد أن أنهي دراستي وقلت أيضا أنني فزت بمسابقة شعرية وجنيت قليلا من المال.

رد أبي بسخرية:

« الشِّعر تربح منو كان الشْعَر.. »

الشّعراء يبيعون الوهم هل من أحد يشتري الكلام والهراء الذي لا طائل منه، زمن الشعر والأدب والفلسفة ولّى، أنت تشبه أمك كانت تعتقد بأن تلك الفراشات التي ترسمها هي فراشات الجنة التي ستدخل إلى القدس يومًا تحررها، كل هذا هراء... الثقافة كلام فارغ لا طائل منه، الناس سيسألونك عن السيارة التي تملكها، عن البيت الذي تسكنه، عن المنصب الذي تشغله ولن يسألوك عن القصائد والشعر والدواوين التي كتبها معتوهون يبيعون الوهم للسذج.. لم يكن أبي يجيد القراءة والكتابة، اقترحت عليه مرارًا أن أعلمه، لكنه كان يجيب بلهجة ساخرة: «نعرف نعد الصوارد، وهذا يزي»

قلت له أنّني لا أريد الالتحاق بالجيش وأنّه لا فائدة من إصراره..

تشبه أمك في كل شيء، حتى في الغباء وفي عدم القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة، ستبقى هكذا طوال حياتك.

لبستُ معطفي الأسود الطويل وهممت بالخروج من البيت بعد هذا النقاش الحاد مع أبي، وجُبت المدينة شارعًا شارعًا وبعدما أحسست بالإعياء، توقّفتُ عند عتبة إحدى العمارات، سحبت سيجارة من العلبة ورحت أدخن بامتعاض شديد، أفكر في تلك الساقطة التي سرقت من أبي ذكرى أمّي، وتساءلت في نفسي هل كان يحبها؟ أقصد

أمي، يوم مرضت، رأيته يقترب من سريرها ويقدم لها كأسا من الزنجبيل.

وراح يقيس لها درجة الحرارة، وعندما غفت غطاها وقبَل خدها وغادر البيت، لم أفهم مشاعر أبي يوما، أشعلتُ سيجارة أخرى وفكَرت فيما قاله بخصوص فكرة التحاقي بالجيش، وعن رؤيته حول الشعر والشعراء، وعندما نطقت هاتين الكلمتين، تذكرتُ أنني سمعت كتاب بعنوان هذا الاسم «الشعر والشعراء » لابن قتيبة، وهو من كتب النقد القديم.

كان أبي أميًّا، لا يفقه في الشعر شيئًا، ولا يحبُ مشاهدة التلفاز، وكان يقول أن التلفاز عجوز قد خرَف يدعي أنه نبي وأن معجزاته دليل على ذلك، وأن كل ما يعرض فيه كذب، مضيعة للوقت وكان يشك في كونه أداة تجسس، فلا يجلس أمامه أبدًا، وعندما دخلت البيت في أحد المرات وجدته يتحسسه كأنه يبحث داخله عن شيء، قال لي حينها، إن هذا التلفاز أداة تجسس كبيرة تفضح كل شيء، شرحت له كل شيء، لكنه لم يصدقني، بل لم يسمعني أصلًا، وقال أن الحرب علمته أن يشك في كل شيء، حتى في نفسه، كان يخاف من أمي ويخشى الاقتراب منها، كأنّها شبح، وكان كلما يلحظها تقرأ كتابًا، يستغفر كأنّه رأى شيطانا بقرنين، كان يقول أن هذه الكتب تلتهم عقلها وتُبعدها عن دينها، كان يخشى أمي لأنها امرأة مثقفة، في

مرّات كثيرة كان يضربها، ويحرق كتبها، سمعته يقول لها مرارًا « تعايري فيا بجهلي؟ أنا اللّي هزيتك من الفقر، واللّا نفكرك كيفاش كنت تعيشي أنت وعايلتك في ڤاراج كي الفيران، أنا شريتك بدراهمي وأنت ملكي »

كان أحيانا يكثر في الشّـــرب ويضربها، راحت أمي تخبّئ كتبها وتقرأها في غفلة منه، وكان أبي يخاف مني أيضا، لا يريد أن أتحدث أمامه عن الكتب كثيرًا، كان يقول أن المال هو كل شيء، المثقفين هم فقط المتكلمين باسم رؤوس أموال، غير المثقفين ويلعقون أحذيتهم، كان يقول ذلك باستهزاء..

كنت أجيبه بثقة: عليك أن تفرق بين المثقفين وأشباههم، ومن يدعونها..

دلفت البيت في حدود العاشرة إلا ربع صباحًا، وكان أبي قد خرج إلى عمله، صعدت إلى الغرفة، واجهتني صورة أمي المعلقة على الحائط فوق السرير بابتسامتها المعهودة ،انهمرت قطرات الدموع على خدي، فلم أرد أن أوقفها أو أمنعها، راحت تلك القطرات الناعمة تنساب على خدي بسلاسة، تذوقت تلك القطرات المالحة، تذكرت طفولتي، كنت أبتلع دموعي المالحة، حينها كنت أعشق طعم ملوحة الدموع، كنت ألتهم حزني وأبتلعه بشراهة، ثم ترتسم ابتسامة على شفتي وأخرج

من غرفتي كي ألعب مع أبناء الجيران وأنسى الشيء الذي كنت أبكي من أجله.

كان كل شيء يبدو ساكنًا، راحت الشمس تتسلل من بين الغيوم، وتبعث بأشعتها الذهبية على نافذة الغرفة، قررت حينها أن أكتب رسالة إلى روح أمي، اقتربت من مكتبي فوجدت الأقلام مصطفّة كأنّها تنتظر فقط أوامري، لتنبض حبرًا على ورق، تلمّست الأوراق البيضاء على الطاولة وحلمت أن الحروف ستحيا بسلام على متنها، فلا أحد يستطيع سرقتها منها، كان البياض ينتظر بشغف تلك الزرقة التي ستملؤه، وتحتل فراغاته، وتملأ أطرافه بنزيف أزرق، تناولتُ القلم، جلست على الكرسي، تأملت مجددا صورة أمّي وجدتها ترنو إليّ بابتسامتها، انتابتني صرخة فزع، ثم لم تلبث، حتى تحولت إلى هدوء وسكينة اجتاحت مسامات جلدي، وغمرتني هزة عنيفة، كنت أعلم أنها طقوس الهذيان، والنزف التي تقتحم سكون الكائنات الحبرية.

إلى تلك الفراشة الهشة التي نسفت بها الأقدار إلى مدينة الأرواح، واقتلع منها شبح الموت، سكونها، وخطفوا منها فرشاتها السّحرية، القمع في هذا العالم مازال متواصلا، لكن الفن يندثر بالأمل، وبالمقاومة وبالحب، يُؤسفني أن أقول أنه لا شيء تغيَر هنا، كل شيء كسابق عهده، بل يُؤسفني أن أقول أيضا أن الفن في هذا العالم يُحتضر محاصر بأشباحه، لكن هو بدوره ما زالت تنأى من مكامنه

شوارعه مدججة بالنقمة، والضغينة، والحقد الدفين، أصبح عالمًا من الأشباح البشرية التي تتجه نحو مصيرها، وموتها المحتوم، كل شيء هنا يبشر بالأسوأ، للأسف تلك الأرواح الطاهرة تُنزف غيظا، وألمَان تنظر من حولها وتنتظر نبيًّا مخلّصان يُرقعون دواخلهم بالانتظار، لا شيء داخل هذه الحفرة إلا العظام المهترئة، والمتآكلة، والنزف الصارخ، كل شيء يتجه نحو حتفه، ونحو العدم، والنبي المخلص لم يظهر بعد، ولا أظنه سيظهر الآن، الضّباب الذي خيّم على القلوب يمنعنا من الرؤية، لا شيء هنا إلا الألم والصراخ والتضرع إلى اللاشيء، كلّ شيء على حاله، لم يتغيّـــر، حتى الشوارع والأسواق أضحت تحمل أجسادًا بلا أرواح بعيون، جاحظة ترنو إلى المجهول، حتى الصبية عادوا يخافون الخروج، كل شيء هنا ينذر بالحرب، وبوحش الموت يكشر عن أنيابه، ويفترس الجميع بأكثر من عين، لا شيء هنا غير العدم، والخوف، والإرهاب، والدم، أرصفة الشوارع الحمراء، صوت المؤذن المبحوح، أجراس الكنيسة المحطمة، ورائحة احتراق الورق، ومآزر الممرضين والأطباء المضرجة بالدم، ودموع الأرامل، وصرخات الأيتام، ووابل الرصاص يُغرق المدينة في الدم، والليل يُطوق المساكن والعمارات، ومراسيم حظر التجول المعلقة على الأبواب وسيارات الشّرطة تغرق المدينة بصفاراتها، وتلتهم المتسكعين،

وترميهم داخل قفص الرعب، يطوق المدينة من رأسها حتى أخمص قدميها.

جدران البنايات الطينية والجورية المحمرة، تبسط نفوذها وسيْطها على أسقف البنايات التي تتداعى على فوهات الصواريخ، التي تنسف سكونها حطاما على رؤوس الساكنين، الكل ينتظر الموت الذي يقف متسمرا على عتبات الحياة، يتصيد الجميع ويتبعهم كالظل، ويتلذذ بالاقتراب، وعندما تدخل مجاله الجوي يشمم ريحك وهي قد دنت منه، تهرب إليه منه خانتك في آخر دقيقة، تقترب من موتك وأنت تدنو من الشارع ، تقع على جانبه المائل مصحة ولادة الأطفال، وكتب على جانب باب المصحة بالبند العريض مصحة الولادات، وأصوات الزغاريد تستقبل مولودًا جديدًا، كتب له أن يعيش في ذيل العالم، وفي الجانب النتن والمقرف منه، تولد ميّتًا في هذه الجهة من الكرة الأرضية، كلّ شيء هنا يتداعى ويهوى كما تهوى الورقة من أعلى الشجر، فتسحقها الأرجل التي تنتعل الأحذية الإسبانية ذات الجودة العالية، ستصاحبك اللعنة الأبدية إلى هوة القبر السحيق، كل شيء هنا رماد وأطلال، وجذوع الأشجار تحتضن ظلها، وتُضل طريقها في غابة الحياة، فتموت جفافًا وتنجرف نحو الهاوية وتندفن في عمق زاوية غير مرئية على حواف آخر جذور الحياة، مقاومة نائمة في عمق الموت. ينسدلُ ستار النّهار على ليل مجحف وطويل، وتنبسط

أضواء الإنارة العمومية على زجاج الغرف، وتحتل ظلمتها بنورها الخفيف... الشعراء هنا يصارعون الألم، بقصيدة أكثر من الألم تألّمًا، كل شيء هنا مثقل بالخيبة، والتعب، واللعنات التي سكنت المدينة وأرواح الثوار وأنفاس الجبناء الكريهة، والروائح النتنة لضباط الشرطة الذين ارتقوا في مناصبهم بسفك دماء الأبرياء، ويتلذذون بنكهة الدم، وصوت الرصاص، ورائحة الموت والاحتراق...

دخل أبي غرفتي تلك الليلة على حين غرة، كأنّه يقتحم وكر المجرمين أو للتجار المخدرات، دفنت الأوراق التي كنت أكتبها في عمق الدرج ونظرت إليه شزرا، ما الذي تفعله في غرفتي؟ ما سبب هذه المداهمة التي قمت بها؟ هل أنا مشتبه بي في أمر غير قانوني؟ قلت غاضبا.

أظن أنك يجب أن تبادلني الاحترام، وأن تحترم خلوتي على الأقل وأن لا تدخل غرفة نومي بهذا الشكل المريع، قلت وأنا أستشيط غضبا

أنا آسف لم أكن أعلم أنك تكتب..

الكتابة جزء من العالم الذي يتخفى وراء السحب الرمادية، عالم لا نعرف عنه شيئا، نحن نكتب فقط لننسى، لنضمد جراحاتنا ونحاصر أشباحنا التي لم نعد قادرين على إحصائها ولا عدها، نحن نكتب فقط بدافع الحقد، وبدافع الحب أحيانا، نكتب لننتشي، نكتب ونحن

نرتجف ونتذكر كل شيء، نرسم أحلامنا خوفًا عليها وعلينا من الضياع والتيه، نكتب لنقتفي آثار من رحلوا عنا ولم يرحلوا منا، نكتب لنخبّيء أشياءنا الثمينة في عمق الحروف، نرسم بالحروف سجنًا كبيرًا لفراشتنا ونخبئ ما تبقى منا في عمق ألوانها، السجن الذي نخبئ فيه كل ما نحب، ولم نسأل يومًا عن حرية الأشياء، الكائن البشري أناني بطبعه، ولا يحب حتى ظله...

أبي يتصبّب عرقا، ويعبث بآلة القيتار التي تتربّع في الجانب الأيمن من الغرفة، ويرمقني بنظرات غريبة، عادة ما تخفي نظراته هذه لعنة، أو قنبلة موقوتة، أو حزامًا ناسفًا، سينفجر للتو، عدل أبي من جلسته وقال: أريد أن أتكلم معك في موضوع مهم.

- تفضل أبي، قلت مستغربا

- سأتزوج، غمغم ..

- هل لك أن ترفع صوتك قليلا لم أسمعك؟

- سأتزوج..

انفجرت ضحكا، تناولت سترتي وهممت بالخروج ، كان الأمر متوقعا وكنت أعلم أن لتلك القبلة تداعيات أخرى..

ذكريات أمي محتلة، كل شيء آهل للسقوط، سقف البيت وجدرانه، صورها الفوتغرافية في سماء باريس، لوحاتها المظلمة، فرشاتها المنتكسة، زجاجة عطرها المسممة، قصائدي المبتورة، كلّ شيء بلغة أبي رهن الاعتقال، وذكراك رهن قبلة.

أبي لم يعد لنا ولن يعود.

عدت إلى البيت ليلتها في حدود الحادية عشر إلا ربع، دخلت غرفتي، وشممت رائحة الذكريات، اغرورقت عيناي بالدموع، عرفت حينها أن أمي قد غادرت ذاكرة أبي للأبد، حتى أنني لاحظت أنه انتزع صورها الفوتوغرافية المعلقة على الجدران، وانتزع أيضا صورة حفل زفافهما من الصالون، اقتلع ذكراها للأبد، ليغرس فسيلًا مسمومًا، جمعت كل ما تعلق بأمي في الحقيبة، وحزمت أمتعتي أيضا، وهممت بالخروج إلى وجهة غير معلومة، هروبًا من شبح أبي وزوجته المستقبلية...

الرّجل الغريب صاحب اللّحية الكثّة:

تكتكة السّاعة الحائطيّة هي كل ما يقاسمني وحدتي في هذه الغرفة الموحشة كسرداب عميق، لا ينتهي السّواد فيه، أنظر إلى السّقف لا لشيء، فقط لأنني لم أجد ما يمكنني القيام به أو بالأحرى ما أريد القيام به، أتفحص الوجوه العابسة من وراء النافذة، تلفحُني نسمة هادئة، ويعتريني شعور غامض لا أفهم معناه، ثم أعود إلى مقعدي خلف الطاولة، وأظل مشدودا إليها، لم أخرج من البيت منذ مدة ولا أريد الخروج، أمضي اليوم في قراءة الروايات وشرب القهوة والتدخين، والتخيل مع محاولات عديدة للتذكر، لا أعلم حقا ما الشيء الذي جعلني أتذكر فجأة ذلك الرجل الغريب صاحب اللحية الكثة، والصوت المبحوح، والكلمات المتلعثمة، طرق بابي في أمسية خميس ممطر، وقال أنه يريد التحدث معي، سألته إن كان يعرفني، فأجابني نافيا، لا أعلم ما السبب الذي جعلني أستقبله في غرفتي هذه، وأستمع له دون أن أفكر في نيته، قبلت طلبه دون تردد أو تفكير، تركته يتكلم طويلا دون أن أنبس ببنت شفة، كان يطرح الأسئلة على نفسه، ويجيب عليها تلقائيا، يستجوب نفسه، يتلعثم كثيرا لكنه لم يتوقف عن الكلام، يُدخن سجائر الملبورو، ويتكلم بشراهة، ولا يتوقف أبدًا، كأنه كان محكوما عليه بالصمت لسنوات طويلة، تكلم كثيرا دون أن

أُوقفه، كنت أحركُ فقط رأسي أهزه، مبديا اهتمامي بكل ما يقول، غير منزعج بمرور الوقت، فقد كنت وحيدًا حينها واستمتعت حقا بالاستماع له، تذكرت ما رواه لي عن قطته السوداء ديانا كما سماها، وقد بدأ حديثه بسؤال وأجاب عنه، طريقته غريبة وفريدة من نوعها، مميزة فلسفة الرجل ذو اللّحية الكثّة.

كان سؤاله: من أنت؟

رجل يقاسم القطط مواءها، ويُسخر حياته لها، ويجيد التحدث معها

رغم كل هذه التخيلات، والفانتازيا، والأمور الغريبة، والمستحيلة، وغير الواقعية، صدَقت ما قاله ذلك الرجل، بأنه يستطيع التكلم مع القطط السوداء دون غيرها، قال أنه لم ينطق إلا وهو في العشرين من عمره، عاش وحيدا بعد أن توفي والديه، بوباء الطاعون، وانتقل إلى المدينة بعدها متشرّدًا في الطرقات ومتسكعًا في الشوارع، وقال أنه يعيش في بيت قصديري بالقرب من هذا الحي، وأنه متزوج بأربع قطط، وخلَف منهن واحد وخمسين ابنًا، وكان يعني بهذا واحد وخمسين قطًّا وقطّة، أعلم أن الأمر يبدو مضحكًا، لكنّـــه واقعيٌّ إلى حد بعيد، في نبرة ذلك الرجل ذي اللحية الكثة، وفي ذهنه كذلك، يعني أنها ليست مجرد تخيلات فحسب، بل إن حياة شخص ما تجري على هذا النحو في هذه المدينة، وبالقرب من هذا الحي لم أعر اهتمامًا لهذا كلّه يومئذ، بل واصلت الإصغاء له بتمعن، حتى أنّه قال أن أول

كلمة نطق بها كانت مع قط، وأول حوار أجراه في المدينة مع قط، وكان يفهم ما يقوله جيّدًا حياة مميزة بالفعل، أن تفهم لغة القطط وتتحدث معها، لكن الأمر الذي لم أفهمه، لماذا القطط السوداء بالضبط دون غيرها؟ أرجعت ذلك لتفسير سيكولوجي، متعلق بطفولته، ربما كنت أفسر كل الأشياء من منطلق نفسي بحت حينها، لأنني كنت متعلّقا بما يكتبه سيغموند فرُويد، لكن بعد مدة ابتعدت عن كل تلك التفسيرات غير المبنية على منهج علمي، ولا على وسائل، ولا على ما يثبت هذه الافتراضات التي كان يضعها فرويد، كانت مجرد كلام وتفاسير ليست مقرونة بأدلّة ملموسة، لكنني أحب علم النفس لأنه يحثك على اكتشاف ذلك الطفل الذي يخر كيانك، وبالعودة له دائما في لحظات الضعف والحزن، لأرى ذلك الشيء الذي كنت عليه في ما مضى من الأيام، والأعوام السابقة، تحدث ذلك الرجل طويلًا، ثم فتح باب البيت وغادر دون أن أراه ثانية، تحدث عن زوجاته الأربع، وعن أبنائه الواحد والخمسين، وزوجاتهم أيضًا، وأحفاده، تحدث عن عالم غريب لا يمكنني تخيله، حتى تحدث عن زوجته "أريانا" التي كانت تعيش بعيدًا عن هذا العفن الموجود في الشوارع، وعن أكلها المنتظم وعن هوسها بالنظافة، حتى وهي في الشوارع، وتنام تحت بيت قصديري، وعن الحياة البائسة التي يعيشونها وعن أحفاده الآخرين، الذين ماتوا في حرب مع الأطفال،

في الشوارع وهم يقذفونهم بالحجارة، لم يكن غاضبا منهم، لأنه يعلم أنهم مجرد أطفال لا يعُون ما يقومون به، قال بنبرة حزن هادئة: كانت عائلتنا ستتكون من مئة فرد على الأقل، فخمنت أن عدد القطط التي قتلها الأطفال من عائلته هي خمس وأربعون قطًّا، من هذه العائلة، فقط جريمة أخرى لا يعاقب عليها القانون، ولا يردعهم عليها أحد، لأن حياة القطط بالنسبة لهم لا تتعدى كونها مجرد لعبة أو تسلية، لكنها أكثر من ذلك بكثير، وهذا ما فهمته من هذا الرجل الغامض صاحب اللحية الكثة، والحياة الغريبة والعائلة الكبيرة، بعد صمت طويل طلبت منه أن يحدثني قليلا عن زوجته "أريانا" لم يمانع، قال أريانا زوجتي الثانية بعد جيفان، وتليها "جيمي" وأخيرًا "فاليريا"، تتميز عليهن جميعا بحرصها الشديد على كل شيء، تقريبًا على الأبناء، على النّظافة، على ملابسي، قبل أن أخرج من ذلك المكان المعفّن والنّتن الذي هو بيتنا، كما أنّها تجيد العزف على البيانو، وكانت تؤدي مقطوعات "موزارت" وباخ بطريقة مثيرة تهزني نحو عالمهم الموسيقي الباذخ والمثالي إلى حدٍّ بعيد.

قلت وأنا أهزّ رأسي الثّـــقيل قطّة استثنائية فعلًا

لم أكن أستطيع أن أقول امرأة، لأنها تبقى في نظري مجرّد قطّة

ثم عدت لسؤاله:

كنت تقول أنها كانت تعيش في بيت، أي أنها قطة منازل، ما الذي حدث حتى تغادر نحو الشوارع المقرفة على حد قولك؟

تنهّد الرجل الغريب صاحب اللحية الكثة، ووضع يده على الطاولة برفق، وأسند كتفيه إلى الكرسي، وتفحصني طويلًا، ثم قال: الإنسان كائن همجي، لا يتوانى لثانية في إبعاد الجميع عنه عندما يتعلق الأمر بمصلحته ورغبته، صمت للحظات ثم أردف، طردوها وبعبارة أصح استبدلوها بقطة سيامية، بعد أن فقأ ابنهم الصغير عينها في تعبيرٍ عن شجاعته وجأشه أمام أصدقائه فقط، فقأ عينها، تخيل الألم الذي اعترى "أريانا"، حينها ألم أقل لك أن الإنسان كائن همجي وسيظل كذلك، لم يكلفوا أنفسهم حتى أخذها للبيطري الذي يسكن بجوارهم، كان تتخبط لوحدها من شدة الألم الذي سببه لها ذلك الطفل الغبي، كان ضعيفا جدا. أخبرته "أريانا"؛ حيث أنه كان يبكي كثيرا عندما يعود من المدرسة وقد ضربه الأطفال الذين هم في عمره، لأنّـــه كان غبيّا ومتغطرسا وساذجا إلى حد بعيد، وعندما جاءه أصدقاءه في ذلك اليوم البائس والمؤلم كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع أن يعبر بها عن مدى قوته هي.

فقأ عيني "أريانا" المسكينة كان يستخرج بؤبؤ عينها اليمنى، وهو يضحك ورمى بها من النافذة، وحين عادت في المساء أخبر والديه أن "أريانا" تخيفه بهذا الشكل وترعبه، فما كان من الأبوين إلا أن تركوها في هذا

الشّارع، بعيدًا عن بيتهم بخمسين كيلومترا، كي لا تعود أبدا، وتبتعد عنهم للأبد، التقيتها وهي تأخذ قيلولة بجانب حائط أحد العمارات التي لم يكتمل بناءها إلى الآن، وأخبرتني بكل ما حدث معها، فاقترحت عليها الزواج حينها، فقبلت "أريانا"، جميلة ومغرية حتى وهي بعين واحدة، لأنني أريدها أن تراني أنا فقط دون غيري، والعين الواحدة يمكن أن تمتلئ بي حدّ التّخمة، أحسست حقا بنوبة حزن تنتابني وهو يحدثني عن "أريانا"، ولعنت في دواخلي ذلك الطفل المعتوه الذي فقأ عينها، وأدركت أن ما قاله الرجل صاحب اللحية الكثة صحيح، نعم الإنسان كائن همجي وسيظل كذلك، كانت الدموع تتسرب بهدوء على خدي الرجل الغريب، وتغطي تجاعيد وجهه بدفئها، بعد أن أنهى بنبرة هادئة كل حديثه، أو ربما ما أراد أن يقوله، وهمَ بالمغادرة، دسست له ألفي دينار في جيبه، بعد إلحاح شديد عليه بقبول هديتي المتواضعة، قبلها، وعبَر عن امتنانه، قلت أنني أنا من يجب أن أشكره، كان حقا حديثا ممتعا وشيقا، وعبَرت له عن حزني بسبب ما حدث لأريانا، فقال وهو يربط على كتفي، رغم كل شيء أحس أنها تشعر ببعض السعادة معي تحت البيت القصديري الدافئ لكلينا، وأظن أنها بدأت تنسى ما حدث لها ولم تعد تحسّ بالألم... غادر الرجل الغريب البيت، وتركني في حيرة من أمري، وها أنا أعود في هذه الأيام لأدون قصته في هذا الدفتر لأحتفظ بها،

بعيدًا عن الذّاكرة التي يمكن أن تنسى جزءًا من حكاية الرجل الغريب صاحب اللحية الكثة، لكنني دونت أيضا في الورقة الأخيرة مجموعة من الأسئلة، ومحاولات للإجابة عنها، لنقل أنها مجرد افتراضات خيالية أكثر منها واقعية؛ فالواقع لا يمتّ بصلة لهذه الحكاية، رغم أنها يمكن أن تلامس جزءًا منه في تفاصيلها، وأتمنى أن تشاركوني في تخيل حلول لها أكثر جدية وواقعية وتفاسير يتقبلها العقل، بمجرد أن يسمعها، وهذه بعض الأسئلة، وبعض الحلول أقصد الافتراضات التي يمكنها أن تكون حلا يقبله أي عقل.

س) كيف لذلك الرجل الغريب صاحب اللحية الكثة أن يضاجع قطة؟

ج) هُو شخص متحوّل، لنقُل أنه جني، الجزء الظاهر منه إنسان والجزء الآخر قط، أي أنه يمكن أن يتحول إلى هيئة قط.

س) لنفترض أنه إنسان طبعًا، فلماذا لا تنجب القطة إنسانًا مثله، فليس بالأمر الغريب أن يشبه الابن أباه؟

ج) الأمّ هي من تنجب وتفرض سماتها على أبنائها، فرحم القطة لا يمكن أن يتربى فيها إلا قط يبدو، هذا الجواب أكثر واقعية، لكن ما خطر ببالي أن الرجل الغريب يكره لحد بعيد، بني الإنسان بما أنه

يصفهم بالكائنات الهمجية، حتى وهو يشبههم أو منهم لهذا قرر أن يكون أبناءه قططا.

س) ما معنى أن تكون قطًّا؟ أو أن تختار العيش مع القطط؟

ج) يعني أن لا تكون إنسانا، وأن تختار أن تعيش بعيدًا عن الجنس البشري وتنفصل عنه بأي طريقة كانت.

س) من يكون هذا الرجل الغريب صاحب اللحية الكثّة؟

ج) ربما مجرد مجنون أو مريض نفسي، أم مجرد حلم وتخيلات.

حلم فلسفيّ لأنّني أُكثر من قراءة كتب الفلسفة هذه الأيام ، لا أبدًا، أنا أدرك تمامًا، ومتأكد أن ذلك الرجل الغريب زارني ذات خميس ممطر، وبإمكاني أن أتذكر كل شيء قمت به ذلك اليوم، دون أن أنسى شيئًا، كنت حينها أقرأ الغابة النروجية لهاروكي ماروكامي، وأرتشف القهوة خلف الطاولة على الكرسي، قبل أن يطرق الباب ويدخل الرجل الغريب صاحب اللحية الكثة من أن يكون غيره الرجل الذي يضاجع القطط، فقد قال بعظمة لسانه أن لديه أربع زوجات، قلت في نفسي ضاحكا حتى القطط لديهم تعدد الزوجات، أربع زوجات وواحد وخمسين حفيدة، كلهم من عالم القطط الذي يختلف عنا تمامًا، وأسماء زوجاته بالترتيب "جيفان" تليها "أريانا" ثم "جيمي" وأخيرًا "فاليريا".

الوحش السّياسي:

أنتعلُ حذائي وأمشي حافيا منك، أتخفى وراء غيمة رمادية مبتعدًا عنك يا ولهي وهبلي وجملي التي لم أقلها، جمل اختبأت بداخلي ولم أبح بها لغيري، أتخفى داخل حروفها وأرتخي، أنا الهارب منك إليك في قصيدة نظمتها لك من خصلات شعرك من حبال صوتك ومن الهبل، هبلي بك حروفي حبلى بك ومني...

تنتظر بشغف العرض الأول للمسرحية تنظر إلى عقارب الساعة يلسعها الانتظار المجحف والثقيل، تغيب في بياضات السماء وتسبح في الزّرقة، تهز رأسها عاليًا، عاليًا جدًّا في الأفق، تطارد النجوم في النهار تغمض عينيها، وتتخيل النجوم، وهي تتلألأ في السماء كأنه موكب زفاف تتصيد الشهب العابرة وترجم الأشباح، أشباحها المخيفة تتذكر أنها المرة الأولى التي خرجت فيها من البيت منذ وفاة والدها برصاصة...

خرج من البيت يومها ليذهب نحو مقر الجريدة التي يعمل بها، لم يأبه بالتهديدات التي كانت تصله، كان مُصرًّا على التشبث بالحياة وبالحقيقة والمصداقية.

هههه صارت هذه الكلمات مضحكة في زماننا، فالحقيقة حقيقة إذا أرادوا لها أن تكون، والحقيقة غير حقيقية، إذا أرادوا أن يبيدوها، ويمحقوا حروفها، وصوتها، ويلونوا بريقها بفرشاتهم المسمومة والمزيفة

حقيقة غير حقيقية!

لم يخف، كان جريئا على قول حقيقة أرادوها أن تكون غير حقيقية

إن نشر ذلك المقال بالمستندات التي كانت عنده ستكون كهزة عنيفة تهز شركتهم وأسهمهم في البنوك، المقال الذي سينشره كان سيقتلع مجدهم المزيف من جذوره، وسيحرق ثروتهم، فقد تورطوا في تبييض الأموال، في تجارة الأعضاء البشريّة، تدليس وثائق رسمية، قتل، اِعتداء، تهديد...

كانوا من القامات السّياسيّـة المهمة في البلاد، لكن بعد أن نشر المقال فتح تحقيقا بشأن هذا الأمر، واقتيد الكثير منهم إلى السجن، وهرب بعضهم خارج البلاد، والبعض الآخر لم تكن هناك دلائل إدانة ضدهم، ومازالت التحقيقات جارية بخصوص هذا الأمر، جمدت كلّ أملاكهم، بما فيها الشّركة...

بعض السياسيين في هذا الوطن كمصّاصي الدّماء، دماء الشعوب طبعًا، فهي الأكثر غزارة، تبعت هذه التحولات تحولات أخرى في

أعلى الهرم السياسي، وكادت أن تعصف بالمنظومة الحاكمة ككلّ، نشر المقال وبعدها بشهر قُتل أبي...

من قتله؟ تكلمت الصحف والقنوات في هذا الأمر لأيام، ثم أغلق الملف وسجل ضد مجهول، كم أنت مخيف؟ أيّ المجهول المعروف، مجهول دموي، المجهول x لكن المجهول هذه المرة معروف، المجهول الناقم كان يريد من أبي أن يطمس الحقيقة وعرض عليه أموالا طائلة، لكنه رفض نصرة الحقّ، المجهول لا يختبئ في معادلة، بل في بلد يكرهه الجزائريون، ويهربون إليه، يهاجرون سعداء له، يعيشون على حلم الحياة فيه أو على الأقل زيارته...

المجهول هرب إلى فرنسا، أخبرت الشرطة بكل شيء لكنهم قالوا: سي فلان هاجر قبل أن يقتل أباك، وليس متورّطا في هذه الجريمة.

سي فلان رجل شريف والكل يشهد على ذلك فقد ساهم في بناء مسجد، وبنى مستشفى في قرية، وهو من السباقين إلى الخير، قلت في داخلي 'من السراقين الذين نهبوا البلاد وقتلوا وشردوا العباد...'

كنت أعرفه جيّدا، فقد زار أبي في الكثير من المرات، تناقلت القنوات الإعلامية خبر وفاة والدي، وكان الحوار مُشتدّا بخصوص ذلك في الأستديوهات، استديوهات التّحليل، كان زميلًا ورقيًّا لهم، في عصر صندوق العجب الأنترنت، كان يدوِّن مقالاته في جريدة

الشعب، كان في بعض الأحيان يسبق الشرطة في تحرياتها ويكشف المجرم، نصحته مرارا أن يبتعد عن الشأن السياسي، الحقل السياسي في الجزائر مدجج بألغام الحقد والضغينة، والكره الشديد للجهة الأخرى، وأبي لا يحمل انتماءً لا للحزب، ولا لغيره

وكانوا عندما يسألونه:

أنت شاوي ولا قبايلي ولا عربي ولا مزابي؟

هل أنت من الشرق أم من الغرب أم الشمال أم الجنوب؟

يُجيب بنبرة هادئة ومخيفة تبعث على الاتزان:

أنا مواطن جزائري وهذا يكفي

نعم كان مواطنًا جزائريًّا صالحًا، يحب هذا الوطن ويغار عليه

قلت له مرارا أنْ يبتعد على الشأن السياسي

ويكتب في الشأن الثقافي:

هناك الكثير من الكتّاب الجزائريين الذين يستحقون بأن تكتب عنهم الصحف والمجلات في المسرح والأدب والفن...

كان يصمت برهة ثم يُجيب:

أجد نفسي مُحلّلًا جيّدًا للشّأن السياسي، وبالأحرى الإجرام السّياسي، كنت أعلمُ أنه محق لكن كنتُ أخاف عليه من هذا الوحش الديبلوماسي الذي يقوم بمحاربته، الوحش السياسي الديبلوماسي، الضحكة الصفراء التي لا تعرف مكانا، لتنبت وتترعرع فيه غير أوجه السياسيين وأفواههم التي تعج بالكذب والنفاق.

من أنت؟

من أنت؟

تابوت خشبيّ قديم يخره السّوس، بقايا لعنة، لغم معطّل، قبلة على رصيف الموت، بخار سفينة تغرق، سيجارة أخيرة في علبة تبغ، وصية ميت، جسد منهوش ومنهك، يد مبتورة، قلم أحمر شفاه مسموم، فراشة في جسد حرباء...

المهم في هذا كله أنني لستُ بشرًا ولا أريد أن أكون.. ظل يبحث عن تعريف لذاته طوال النهار، أوصد باب الغرفة في وجه الجميع، أراد أن يبقى وحيدًا، استخرج من الخزانة ألبوم صور، وراح يقلبه كأنه يبحث عن شيء معين داخله، فهذا الضوء الخافت الذي يبعثه القنديل الزيتي الشحيح داخل الغرفة لا يساعده على الرؤية، ففي السنوات الأخيرة لم يعد يُبصر جيّدًا، وعيناه توشحت بالسّواد، ورسمت هالة زرقاء تحتهما، راح يُقلب تلك الصور، حتى وجد أخيرًا ما كان يبحث عنه، راح يمعن النظر في صورة ابنته وظل يبتسمُ كلما رآها، كانت في ما مضى تتقدم نحوه لتعانقه كلما دلف البيت مساءً عائدًا من العمل، تسخن له الماء ليغتسل وتغسل ملابسه وتنتظر قبلته الليلية على خدّها، توفيت منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات بصعقة كهربائية، كانت تعيش

معه في هذا البيت الذي أصبح ميّتًا وباردًا ومُقفرًا كصحراء خالية، لم تتجاوز ربيعها الثالث والعشرين، توفيت قبل عيد ميلادها بيوم، منذ ذلك اليوم قام أبوها بسل الأسلاك الكهربائية من البيت، وعاش على ضوء القنديل ودموع الذكريات السّاخنة...

كان هذا البيت قبل ثلاثة سنين يعج بمظاهر الحياة، أمّا الآن فهو ساكن وميت، يشبه ساكنه، لم يعد للحياة أيُّ معنى، لم يعد لهذا الشيخ ما يحكيه، احترقت ذكرياته وضحكاته، وتلبّـــدت سماء وجهه بالغيوم التي تحجب رؤية المستقبل، لا شيء هنا، إلّا الماضي الذي ينفث الحزن في روح هذا العجوز، ويسرق منه أيامه المتبقية، يغادر غرفته فقط لشراء بعض المستلزمات الضرورية من أكل ومواد تنظيف وغيرها، كان فقط ينتظر ذلك الشبح الأبيض، ليأخذ بيديه إلى العالم الآخر حيث تنام ابنته.

الشّيء الوحيد الذي يجعلنا نستسلم للموت، هو العذاب الذي نكابده من وجع الحياة، ومن الذكريات العائمة على أسطح أفكارنا، لا شيء نرغب فيه الآن سوى شهقة الموت، أو الانتهاء عند هذه النّقطة.

بالضبط، سيتبدد كل شيء، سينتهي كل هذا الألم، هذا الانتظار المجحف والطويل، هذه الأيام الثقيلة التي تجر نفسها ببطء، اقترب ملاك الموت من هذا الجسد الذي يتنفس بصعوبة، سحب روحه النائمة على مشارف الذكريات الهامدة وأعاده إلى حضن ابنته.

وبعد أكثر من ثلاث سنوات ها هي الابتسامة ترتسم على وجه الشيخ الذي ركب حافلة الموت نحو حياته التي تتجلى في صورة ابنته في الجهة الأخرى في عالم آخر...

باخرة سانتا ماريا ديجار:

جلس أحمد في إحدى زوايا المقهى المظلمة، وفي الجانب الذي تطل نوافذه على الميناء، وراح يراقب السّفن، وهي تغادر مخلفة غيمة من البخار وأيادٍ ممتدّة في الهواء، تودع هذه الأرض وتغادرها إلى مكان بعيد خلف هذه الزرقة التي يتلثم بها البحر...

باخرة سانتا ماريا ديجار، رأى هذه الحروف ترتسم في أعلى السفينة، غادر مسرعًا، وهو يدخن غليونه بامتعاض شديد، ويفكر في شيء ما، في ذكرى ما، يحفظ هذا المكان، وهذا الكائن العملاق الذي يتربع على جزء كبير من الميناء باخرة "سانتا ماريا ديجار"، التي غادر أبوه على متنها إلى إسبانيا قبل خمس سنوات من الآن، تركه وقد بلغ من العمر حينها خمس عشرة سنة، ووردت آخر رسالة منه قبل سنتين، ثم انقطعت أخباره نهائيًّا، غادر أبوه البلد في ظروف سياسية يكتنفها الغموض، بعدما كان من أهم السياسيين في البلد الذي يضيق كل يوم ليخنق سكانه ومواطنيه، في هذا البلد الذي تحول فيه كل شيء إلى مجرد تاريخ هارب لا يريد أن يلتصق به، كان صوت والدي يصل متقطّعًا من وراء البحار، كان يتنفس بصعوبة بالغة وهو يغادر هواء هذه الأرض، لم يكن مجرمًا، فقط كان يدافع باسماتة محارب على

الاختلاف المشروع، نفته السياسة والتهمت داخله والتصق به الموت وجردوه من كل شيء.

كانت الاغتيالات التي لا حد لها تمزقه وتعصف به بعيدًا، نحو تلك الأرض التي ضاع فيها عنا إلى الأبد، بعد أن ضاع منه كل شيء، كان حزبه مناهضا للسّلطة، من أحزاب المعارضة القليلة التي كانت تدافع عن حقوق هذا الشعب، وتلملم أشلاء هذا الوطن، لم يفهم أنه ما من أحد في السلطة يريد لهذا الوطن أن يُبنى، كانوا فقط يهدمون كل شيء بخطاباتهم ووعودهم الباردة، يُقبلون جبين شعب قتلوه، وسرقوا منه وطنًا ومستقبلًا، وطنا لم يكن يعنيهم في شيء، سوى أنه بقرة حلوب، أو وادٍ من الذهب يملؤون جيوبهم وحسابات أبنائهم في البنوك، ويغادرونه بالتصفيق الحار، سمع أبي بالاغتيالات التي مست أعضاء ومناضلين في الحزب الذي ينتمي إليه، وواحدًا من مؤسّسيه، بعدما اعترضوا على قرارات رئيس الجمهورية التي كانوا يرونها تعسفية في حق معتقلي الرأي السياسي، فهم أبناء هذا الوطن، أبناء الحرية والاستقلال، ولم يكونوا من خارجه، كما أن كل التُهم الملفقة ضدهم ظلمًا وبهتانًا، لا أساس لها من الصحّة، كان أغلبهم طلبة جامعيين، دكاترة، محامين، أطباء، مثقفون، لم يجرموا في حق هذا الوطن، ولا في حق شعبه الذين هم جزء منه فقط عبَروا عن رأيهم السياسي،

وانتفضوا سلميًّا، ورفعوا الراية الوطنية عاليًا، كدليل على أن دماءهم من دماء الشّهداء الزكيّة...

كانت السّلطة الحاكمة أنذاك تُصغي بانتباه إلى قرارات تصلها عبر الهاتف من أصحاب السموّ في فرنسا، ومن الجنرالات في الثكنات العسكرية، وهم يتجرعون النبيذ، ويتقاسمون الوطن فيما بينهم، وراحوا يشدُون الخناق على كل من تخول له نفسه اِتّهامهم، أو متابعتهم ومحاسبتهم وفضحهم، ويزجون به في غياهب السجون، ثم يأمرون زبانيتهم بقتله، أو التخلص منه بأي طريقة كانت، حتّى وهو في داخل السجن، ينهبون كل شيء، باسم القانون، والامتيازات، والحصانة، يأكلون الأخضر واليابس، يُهيمنون بقبضتهم القوية على الأسواق، ويُتاجرون في كل شيء، المخدرات، الأسلحة، الأدوية، العقار..

غادر أبي هذا البلد إلى خارج البلد ودون رجعة، وفي قلبه يسكن وطن أراده أن يكون أُمًّا، تقوم باحتضان الجميع، وتعطف عليهم، غادر وطن سكنه وسكن فيه إلى الأبد، حتى نهش داخله، وهوت سقوفه على رؤوس ساكنيها، كان هذا الوطن الذي حلم به، يلتهمه، ويمزق جلده، وينخر عظامه ، حملت باخرة سانتا ماريا ديجار وطنًا فوقها، وطني أنا والذي هو أبي، ووطنه الذي حلم به، ورعاه كطفل في قلبه، ولفضته خارجها نحو إسبانيا، كبرت الأحلام حتى صارت

وحوشا التهمت أبي وابتلعت معه آخر الآمال في عودته، نحو هذا الوطن الذي لم يعد له، ولم يعد لنا ولن يعود، صار ملكًا لهم بوثائق تثبت الملكية وبحجة قانونية، أبناء الوطن غرباء في أوطانهم، فما بالك خارجها...

وصلتنا أنباء تقول أن أبي توفي، أو بالأحرى أُغتيل، بعد أن نشر كتابًا تحدث فيه عن الأوضاع السياسية في الجزائر، في تلك الحقبة، سحبوا كل النّسخ من المكتبات وأحرقت، فقد كان لوحوش وشياطين هذا الوطن جواسيس من المخابرات في كل مكان، حصلت على نسخة منه بعد عشر سنوات من الحادثة عند استقرار الوضع السياسي، لكن النار كانت قد التهمت جزءًا كبير منه، مات أبي وهو يحمل فتيل وطن أحرقه، كتبت كل هذا على متن وحش سانتا ماريا ديجار العملاق، وهي تزأر على سطح الماء، وتغادر مخلفة بخار كثيفًا، ضُعت فيه ورُحت أبحث عن وجه أبي، قبَلته للمرة الأخيرة، ودفنته في عمق دمعة اختلطت مع موج البحر على عتبات الميناء...

غادر من هذا المكان إلى منفاه الأخير، ودُفن هناك على خيبة وطن حاملًا معه أحلامًا، لم تكن له يومًا، كانت لشعب ولأمة تحلم أن تستيقظ على غد أفضل...

الحقيقة جزء من حرائق هذا الوطن:

كل شيء يبدو هامدًا في لحظة غرق، في لحظة شوق تقترب من المستحيل، في متاهة الخوف، في لحظة ظمأ، والكل يقترب من حتفه.

النّار تستعرّ في جسدي، وشبح الموت الأبيض يبتسم للجميع على بعد خطوة منا، صرخات الأهالي، ودموع الآلهة، يتشارك الجميع في لحظات الخوف والحب، وفي هذا الموكب الجنائزي الصاخب، وقطرات العرق تطفئ النار التي أضرمها الشيطان في الجنة...

يُحاول بكلّ ما أوتي من شوق وحب أن يجمع أشلاء هذا الجسد، الذي اختلط لونه بالرماد، وبدم جثة جندي محروقة، يلفُها بقطعة قماش بيضاء جثةً أو بقايا جثة أحرقتها النيران التي لاتزال مشتعلة في هذا الجبل الأصم، لا شيء يُطفئه إلا الدموع والعرق، النار تُحاصر ما بقي من جناننا، وسهولنا الخضراء وترمي به نحو العدم، نحو السواد في شبح الرماد الذي نتوشح به مدينة الموتى.

الصورة الوحيدة التي جمعته مع يوسف الجندي الشهيد، في حرائق تيزي وزو، وجدها ممزقة في الخزانة، حاول أن يجمع أشلاء هذا الجسد المحروق ودموع الشوق والأسى تُقاسمه جزءًا من الذكريات القليلة التي

جمعتهما في مقاهي المدينة، لم يبقَ من الصورة إلى عينا يوسف التي سبقته إلى الفراغ، والشبح المبهم.

التحق بصفوف الجيش قبل سنتين، وانتقل من تينزاوتين بولاية تمنراست إلى ثكنة في أعالي جبال تيزي وزو، آخر اتصال بينهما، كان قبل يومين من الحريق، أخبره يومها أنه يريد العودة بأقصى سرعة ليحضر حفل زفافه الذي سيكون في أواخر هذا الشهر، التهمت ألسنة النّار كل شيء، ولم تبقِ إلا على ذكريات تستنزف ما تبقى من أرواحنا المنهكة..

أخبار الموت صارت أقرب وأكثر ما يصل إلى أسماعنا، الوباء الذي يفتك بأجسادنا، الحرائق التي أتلفت غاباتنا وجبالنا، واليوم تخطف أرواح جنودنا على مرأى من الجميع، ولا نستطيع تقديم شيئًا حيالها، نقف مكتوفي الأيدي أمام وحش الموت العنيف الذي يترصدنا من كل الجوانب، كيف سنموت؟ وهل سنصمد أمام آلة الموت التي تحصد ما تجده أمامها، أما أنه سيكتفي بتعذيبنا، وتخويفنا فقط، لنعيش على ألم الفقدان وطعم الدّموع المالحة، يتلذّذ بمخاوفنا ويتبعنا كالظل أينما ذهبنا، ويتحين الفرصة لأن ينقض على ما تبقّى منا، إلى متى سنبقى متخفين في منازلنا من شبح الموت، الذي يترصد بالجميع، هل يظنّ السّاسة أنهم يرقعون جراحاتنا بخطاباتهم المخادعة والزائفة، التي تُظهر خوفهم وكذبهم وعدم قدرتهم على طمأنة هذا الشعب،

وإطفاء نيران الغضب التي تتأجج في دواخلنا، مازالوا مستمرين في كذبهم، لا يقدرون على فعل شيء، سوى الجلوس على الكراسي والتفوه بالهراء والوعود الكاذبة، النيران لن تنطفئ قبل أن تحول أجسادهم إلى رماد تذروه الرياح، بعيدًا عن هذه التربة المقدسة التي تمتازج فيها الدماء بالدموع والحب والحقيقة، التي تختفي خلف جذع آخر شجرة لم تصلها ألسنة النار وتسبح داخل جذورها، وتتلطخ بالدّم والتّربة والرّصاص والحبّ...

تظل جالسة تحت النافذة تتفحصني بنصف عين وتشيح بوجهها عني هل قدر لها أن تتبعني كظل في آخر أيام حياتي خواءً هل كتب لها أن تظل جاثمة أمامي تترفسني كما لو كنت شبحا لا يرى أو ظلا لميت، هل للميت ظل، للموت ظلّ، بل ظلال كثيرة لا تكاد تراها وهي تقترب منك في آخر لحظات الحياة سخاءً وتهبك السكينة الأبدية التي لا تحس بعدها بشيء، نعم للميت ظل أو شبح ظل...

تبقي شفتاها مزمومتين لم تنطق بكلمة منذ غادرنا القرية واتّجهنا صوب هذه المدينة الصاخبة لا تخرج من البيت إلا نادرا وتعود بعدها وهي تتأبط حزمة كتب وترمقني بنظرات اِستفزازية، كما لو أنني المتسبب في الحريق الذي شب في بيتنا القروي في أمسية صيف قائظة اِلتهم الحريق كل شيء تقريبا، لم يبقَ لوجودنا في القرية أي معنى، كان ذلك البيت الطيني هو كل ما أملك كانت حجارته هي

سندي الوحيد وكتفاي العريضان لا يتّكآن على غير جدرانه كما لو أنه صدر أم حنون كنت من فوق الربوة أنظر إلى البيت وهو يحترق والنار تبتلع شقاء عمري، ووقفت مكتوف اليدين عاجزا عن فعل أي شيء، لم يبقَ من البيت إلا الرّماد..

صرنا نعيش كغريبين في غرفة فندق، تطلُ نوافذها على زقاق ضيق، تنبعث منه رائحة شحوم السيارات، ففي الجانب الأيمن محلات لبيع شحوم وزيوت السيارات وبيع الخرداوات، وبيع العتاد الميكانيكي وفي الجانب الآخر محلات فاست - فود وجبات سريعة، تتمثل في البيتزا والسندويتشات ومأكولات أخرى لا أتمكن من استيعاب اسمها، ولا التلفظ الصحيح بها، كنت أسميها حينها بمحلات الفاسد- فود فكل ما تعرضه وجبات سريعة فاسدة لا تصلح للأكل، مضى على مكوثنا في هذا الفندق أكثر من أسبوعين، ورغم كل محاولاتي الحثيثة للتقرب منها، كانت تردني عنها بنظراتها المتجهمة، منذ أن شبّ الحريق، ودفعتني عنها وأنا أضمها إلى صدري، عرفت أن شيئا ما في علاقتنا انكسر وإلى الأبد، حبل المودة الذي كان يجمعنا تمزق، وحتى عندما انتقلنا إلى شقة اسأجرتُها في إحدى العمارات، عسى أن أعيد الدفء إلى علاقتنا بعد أن اجتاحتها ريح باردة، ورغم كل محاولاتي بالتودّد إليها والاقتراب منها وملامستها، كانت كما لو أنني أتكلم وألمس خشبًا، بعد مرور ثلاثة أشهر وأنا أسكن مع ظل لم أفلح

في جعلها تفهم أنني لا أتحمل مسؤولية ما حدث، كان هذا قدرًا وعلينا الآن أن ننظر للحياة من جديد، وأن نهتم بأنفسنا وننسى ما حدث، ونطوي تلك الصفحة ونكتب صفحة أخرى تستيقظ مع صباحات المدينة...

نهضت في إحدى الصباحات لأستمع إلى صوت المطر الذي ينقر على النوافذ، ليوقظها من ليلها ويبعث فيها نورا صباحيًّا هادئًا، واتجهت صوب المطبخ لأجدها امرأة أخرى، في ثوب جديد وابتسامة مشرقة تنشر في النفس حياة أخرى، تدندن بصوتها موشحًا أندلسيًّا، خطرت ببالي فكرة أنني أحلم، فمنذ عدنا من القرية لم أسمعها تنطق بكلمة، ما الذي تغير فجأة؟ ما الذي أصابها؟

وقفت أسترق السمع خلف الباب مستمتعا بصوتها

سلب النوم خيال مرّ بي

في فؤادي لحبيب غائب

يا خليل الروح هلّا زرتنا

في شروق الشّمس أو في المغرب

أو زرني في منامي علنا نلتقي لو

في زوايا الحجب...

دخلت المطبخ دون أن تتفطن أني خلفها، لثمت رقبتها بقبلة، لم تصدني هذه المرة كما حدث في المرّات السّابقة ابتسمت، وأحنت رأسها إلى الأمام تنظُر إلى إبريق الشّاي، هززتها كما يهزّ غصن عش عصفور، لثمتها بقبلة أخرى على جبينها هذه المرة، ثم ثغرها كانت هي المرة الأولى التي أحس فيها أن هذا صباح مختلف، وأنّ المدينة تطوقني بجانحيها، كما تطوق عصفورة ابنها، كان كل شيء مزهوًّا تلك الصّبيحة، لثمتها من ثغرها، وحملتها إلى السّرير نزعت عنها ملابسها، تلمست حلمتي صدرها النافرتين، كنت ألعق كل مكان في جسمها كما لو أنني أطأ ترابًا مُقدسًّا، كنت لا أمرّ من مكان إلى مكان قبل أن أقبل كل جزء فيه، كما لو أنني ألامس هذا الجسد للمرة الأولى، هذه المرة كانت مختلفة تمامًا عن سابقها، لا أعلم السبب، لكنني كنت أكتشف سحرًا جديدًا في جسدها، كان لساني يتحسسها كسكين، وكان صوت تأوهاتها، وهي تهتز تحتي كراقصة باليه، يُشعرني بتملك بيت آخر سأُسكنه عمرًا كاملًا، وأحميه كحارس للجنّة، ونسيت ذلك الشعور بالخيبة الذي تملكني منذ أن وطأت قدمي هذه المدينة وأدركت أنني أولد من جديد..

الجسد وطن آخر:

كان يجلس القرفصاء فوق الرّبوة، ينظر باندهاش إلى البيوت، والخيام التي تتربع في وسط هذه الصحراء، وإلى النخيل، وهو يتمايل على وقع هبوب الرياح، وإلى أصوات البدو، وهي تختلط وقت الغروب مع رغاء جمالهم، وتتّجه نحو البئر لتشرب، وإلى ملابسهم البيضاء التي يتلحفونها وعمائمهم التي يشدون بها رؤوسهم، ويتلثمون بها، إذا شبت العواصف الرملية في وسط الصحراء، وهم يرعون الإبل، ظلّ مشدوها وهو يستمع إلى صوت أهازيجهم، وأغانيهم وآلاتهم، ورقصاتهم الغريبة الأقرب إلى رقصات الغجر...

يستحضر ذكرياته وكأنه يميط اللثام عن حضارة غابرة، وعن أيامه وأعوامه الخوالي، ظل ساعتين وهو بهذه الحالة الغريبة كساحر يستحضرُ الجن والشياطين والعفاريت، وتزاحمه ذكرياته كطيف، كيف لا وهو ينام، ويفيق على ذكرى ذلك اليوم المشؤوم، الذي استيقظ فيه أهل القرية على صوت نائب رئيس البلدية، وهو يدعوهم للتجمع في مقر الفرع البلدي وسط القرية لأمر مهمّ، وبعد أن تجمعوا، أمرهم أن يرحلوا إلى الولاية التي تبعد عنهم بمسافة خمسين كيلو مترا، استقبل الجميع هذا الأمر بدهشة واستغراب، وكانوا ينظرون إلى بعضهم البعض، مُتسائلين عن السبب، وكأنهم كانوا ينتظرون من أحد منهم

أن ينطق ويرفض هذا القرار، أو أن يمتنع عن المغادرة، لكن صوت رئيس البلدية رد وكأنه سمع تساؤلاتهم، عليكم أن تخلوا هذا المكان في ظرف أسبوع، وإلا لجأنا إلى القوة، أما عن بيوتكم وأموالكم وأراضيكم فستتكفل البلدية بتعويضها لكم، ستهجرون إلى مجمع سكني راقي وسط الولاية وستعيشون هناك...

غادر نائب رئيس البلدية يومها من المكان، وتركهم في حيرة من أمرهم، والأسئلة المبهمة تدور في رؤوسهم التي كانت تغلي غضبًا، وتبعث في أنفسهم الحيرة والحزن فقد قضى معظمهم سنوات في هذا المكان، وفي هذه القرية وولدوا هنا، وترعرعوا وسط شوارعها، كيف لهم أن يغادروها هكذا دون إنذار مسبق، جذورهم هنا، وولدوا فيها، هنا وُلد أباؤهم وأجدادهم وهنا دفنوا، بكى الكثير من أهل القرية يومها، رأيتهم كيف يحزمون أمتعتهم ويغادرون بعد أسبوع، عدت بعد أيام من مغادرتنا القرية أنظرُ للشيء الذين هاجروا بسببه، كنت حينها طفلًا لم يتجاوز العشر سنوات، كانت الآلات الثقيلة تدكُ الأرض وتحفرها، تُحطّم البيوت وتُبعد الأنقاض، وقبل أن نغادر سمعت رئيس البلدية وهو يخبر السكان عن سبب ترحيلهم، أخبرهم أنه سيبنون سدًا ليزودوا المدن والقرى المجاورة بالمياه التي تعرف ندرة لم أكن مهتمًّا بما كان يقول، كنت أنظر إلى المهندسين وإلى العمال وهم يرتدون القبعات البلاستيكية الصفراء الصلبة فوق

رؤوسهم، تمنيت يومها أن ألبسها، ويحملون بأيديهم أوراقًا مستطيلة الشّكل، ويشيرون إلى عدة أماكن، ونتوسطهم امرأة ذات شعر أصفر ينسدلُ على كتفيها، كسنابل القمح وقت الحصاد، وكانت تبتسم لهم، وتأمرهم بأن يلحقوا بها، ما الذي يخططون له؟ وما هذه الأوراق التي يحملونها بأيديهم؟ وما فائدة هذه القبعات الصُفر الغريبة الشّكل، كانت كل هذه الأسئلة تراود عقلي الصغير حينها، اتجهنا بعدها صوب المدينة، دخلت المدرسة لأوّل مرّة، فكل ما تعلمته في القرية كانت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، علمني إياها شيخ المسجد في القرية، أمّا اليوم فقد أنهيت دراستي الجامعية وأعمل كمهندس في شركة بترولية.

فمع أن المدينة فتحت أعيننا على المستقبل، لكن مازالت في دواخلنا تعبق برائحة تلك الأماكن التي هجرناها، أو هجرونا منها، القرية هي المكان الذي أحسّ أنّني أنتمي إليه حقا، أنني جزء منه وهو جزء لا يتجزّأ منّي، كنت في ما مضى أسكنه، أما اليوم فهو يسكنني، كيف لا وكل أحلامي بدأت من هناك، طفولتي أول مقابلة غرامية حكايات جدي البساتين، التي كنت أسرق منها التفاح، وأختبئ تحت أشجارها الحقول التي نتأت منها، كما لو كنت بذرة أو فسيل شجرة، زغاريد الأعراس رائحة الخبز الذي تعجنه أمي، قصائد الدّراويش، تنبؤات العجائز ومواويلهم، علجية التفازة وهي تطوف بالبيوت وتقرأ

الطالع للفتيات اللواتي لم يتزوجن بعد، وتتفحص أيديهن تنبؤوا بالمستقبل، كانت حكاياتها تبعث في نفس أبي الضحك الذي يصل إلى حدّ القهقهة، صوت المذياع وخشخشته، أصوات النسوة وهُن يتحدثن في الحمام عن المباح والمحظور، وعن الغائبين والحضور، فلا أحد يسلم من ألسنتهن الحادة كالسيوف، ولا يغادرونه قبل أن يفرغوا، كل ما في جعبتهن من أحاديث وأكثرها اغتياب ونميمة، فلا ينسون أحدًا، وكأنّ الذاكرة يومها استفاقت، ولم تترك شيئًا للصّدفة.. في المدينة لم تبقَ لأحاديثنا أيّ قيمة، كنّا نعيش في مكان لم نولد له، كنا نتوق إلى أحاديث القرية ونعيش على ذكرياتها، انطفأت المدينة في أعيننا فتشبه بذلك العمى والسّواد، كُنا غريبين عن المدينة، والمدينة غريبة عنا لا تشبهنا ولا نشبهها في شيء، نحن لسنا منها، وهي ليست منّا، عشنا في القرية وعاشت فينا للأبد لا تغادرها كوردة في صحراء ...

مدينة السّحاب:

ما الذي تفعله؟

أؤثّث السّماء بالحكايا

وأشيد مدنا عائمة في السّحاب

مدينة السّحاب..

شيّدت الآلهة قبل ملايين السنوات هذه المدينة المترامية على ظهر السّحاب، لتبقى حاضرة نتوداولها الألسن، وتدونها الأقلام على أنها أسطورة من الزمن الغابر، وتحيك أبراجها العجائز هكذا سميت مدينة السّحاب.

مدينة المعجزة..

مدينة الخيال الجامح ..

الإنسان الأوّل الذي سبر أغوارها وغاص في عوالمها اللامتناهية، عاد منها نصف إنسان بجناحين واحد منهما جناح ملاك أبيض، والآخر جناح بعوضة، ورأس تتدلى منه عناقيد العنب المسمومة ما إن يتذوقها أحد حتى يختفي وتحل محله شجرة سامقة وارفة الظلال جذورها ضاربة في باطن الأرض وجذوعها تمتد مطلة على ما بعد

السّماء، هكذا عاد مكتشف مدينة السحب نصف إنسان، لسان يشي بالحكمة، وتصرفات جنونية تشي بالرعب، أصبح كل من في القرية يخشون الاقتراب منه فقد التهم طفلا بمجرد أن اقترب ليقطف حبات عنب متدلية من رأسه.

يدور في القرية كالمجنون يتمتم ويصرخ، يبيت في العراء يصطاد الطيور ينتف ريش أجنحتها ويطلقها في السماء لتتحول حصانا طائرا.

وبعدها يجمع الريش في زجاجة ويرميها في البحر فتتكسر الزجاجة ويصدر البحر صرخة مدوية ترتج لها مساكن المدينة، وانتشرت الحكايات بين الناس أن تلك الصرخة تطرد الأشباح من القرية، وأن تلك الطيور التي نتف النصف إنسان ريشها ما هي إلا شياطين تائبة وأرجعها بحكمته إلى صورتها الملائكيّة.

اختفى النّصف إنسان لأشهر وأمطرت السماء بعده على القرية ريشا أسود كما له أنها لعنة، اجتمع سكان القرية وتناقشوا في هذا الأمر مليًّا وقرروا أن يجمعوا هذا الريش في المكان الذي كان يبيت فيه النّصف إنسان، نائما بين الكهوف والجبال متوسدا الحجارة والحكمة والأفاعي .

عاد النّصف إنسان من رحلته الطويلة، يمتطي حصان أبيض يدور حوله سرب بعوض كأنه يحرسه من شياطين أو من أشباح لا مرئية

رآه الجميع عند تخوم القرية فتعالت الأصوات والصيحات معلنة قدومه.

وهرع جميع من في القرية لاستقباله بفضول ودهشة بعدما خمنوا أنه رجع من رحلته إلى مدينة السحاب هو ليس نصف إنسان فحسب، بل نصف حكمة، نصف جنون، نصف معجزة، نصف قرية فقدت نصفها وعادت لتلتحم به...

عاد النّصف إنسان هذه المرة بعد رحلته الطويلة إنسانا اختفى جناحاه وعناقيد العنب المتدلية من رأسه كأنها الشياطين، وطلب عجائز القرية ليحضروا بين يديه استغرب الجميع طلبه عاد إنسانا يشبههم ولا يشبه نفسه، ولا عاداته ولا شكله القديم، لكن صورته بقت محفورة ومضيئة بالرعب في ذاكرتهم وستبقى كذلك صورة أسطورية لنصف إنسان عاد من رحلته الطّويلة إنسانا لم تكن رحلته هذه المرة إلى مدن السّحاب، بل رحلة طويلة إلى الإنسانيّـــة.

تحلقت العجائز حوله وهو يجلس في المنتصف كأنه ولي صالح، أو كأنه عاصمة الزمن والسحاب والعاصفة، كأنه قلب القرية ينبض بالحكايا وبدقات السماء والمجهول، العجائز يقدسونه كأنه تربة هذه الأرض يستمدون منها أنفاسهم كأنهم جذور أشجار معمرة وتربته تمنحهم الاخضرار وتذكرهم بالأجداد الذين عمروا هذه الأرض قبلهم وعاد جدهم من رحلته، جدّهم الذين لا يعرفونه ليذكرهم بأمجاد

القرية وبطولاتها في أزمنة غابرة، كان النّصف إنسان يمثل جدا أسطوريا لا يموت، جدا مجنونا بالسحاب والحكمة يتخذ الجنون حياة - نصف إنسان - نصف قرية التي عادت لتحتضن قريتها وتلملم جراحاتها وتكنس شوارعها من الريش الأسود التي هطل عليها كلعنة بعدما غادر منها، هذا الإنسان الذي عاش في قريتهم دون أن يعرفوا له اسما، أو نسبا، تاريخ عظيم لا تاريخ له...

عاش يحرس مساكنهم من الأشباح هذا النصف إنسان الذي يشبه الموت ويمنح الحياة كشريعة مقدّسة..

بدأ النّــصف إنسان في سرد إنسانيته التي سلبت منه في مدن السحاب العائمة في السّماء، الشّاسعة الممتدة إلى اللّانهائيّة، مطلّة على ما بعد رؤوسهم وخيالاتهم المحدودة عند نقطة المعجزة عند حدود الإنسان.

هذا الكائن النّصف سماوي ينتظرونه كسحاب طلقته السّماء وعاد مضرجا بالمطر وبالخصوبة وبالحياة...

شبح الموت :

تلفظ أنفاسها الأخيرة، تتنفس بصعوبة، تحس ببرودة تنتشر في جسمها، شيء ما سيغادر للتوّ هذا الجسد الهزيل، لا تستطيع منعه ولا إيقافه، ولا حتى تستطيع أن تترجاه كي يجعلها تعيش لأيام أخرى، كادت تُقنع نفسها أن يوماً واحداً يكفي لتكفر عن بعض ذنوبها، تغرق في الخطيئة الأولى، تتكمش على نفسها فيعود بها خيط الذاكرة عشرون سنة للوراء، تتذكر تلك الليلة الموحشة، التي مازالت ذكراها ترهقها، تلك النوبات التي تحتل هدوءها فجأة، وتُخرجها عن سكونها، تتذكر أنها حاولت أكثر من مرة الانتحار لكنها نجت بأعجوبة، لكن عندما اقترب هذا الوحش منها اليوم، أبت أن تسلم له روحها، تتشبث بالحياة وتدفع عن نفسها هذا القدر الحتمي الذي يقترب منها، تلطمها أمواج الذكريات لتعود بها إلى بحر الماضي، لازلت إلى اليوم تتذكر ما حدث معها تلك اللّـيلة بالتّـفصيل، يوم أغوت أخاها ليضاجعها، كانت تعلم جيّدًا أن أخاها لن يُمانع ذلك، لأنه فاقد لمداركه العقلية، اقتربت منه بهدوء وراحت تمسح على شعره تداعبه تقترب منه، تضع رأسها على صدره وتنتشي برائحته، كانت مستسلمة لشهوتها، سلمت نفسها لغريزة حيوانية، احتضنته وقامت بِافتراسه كأفعى سامّة، لم يكن يدرك ما يفعله، استسلم هو الآخر لشهوته،

كانت تعلم أنه مجنون، وأنه سينسى كل شيء، نهضت بعدها اختلست النظر إلى الغرفة وابتسمت ابتسامة شيطانية، ثم غادرت لغرفتها لتتركه نائمًا بعد خمسة أشهُر، يفاجئها الطبيب بأنها حبلى، فتقع مغشيا عليها، تفكر في حل يخرجها من هذا المأزق، تبكي كثيرا، اختارت أن لا تخبر أحدًا، وقررت بعد تفكير طويل أن تجهض هذا الجنين ابن زنا المحارم، وكأنّها لم تندم على ما فعلته، لا ينتابها شيء اسمه تأنيب الضمير، تفكر فقط في الإجهاض للخروج من هذا المأزق، نظراتها توحي باللاشيء، ما هو اللاشيء؟ كائن أو هو غير كائن، لا يستطيع أحد منا وصفه، تعود للبيت تخفي ملامحها في وجه آخر، تستعيره من شخص آخر داخلها ترمي بجثتها فوق السرير فتُشعل سيجارة، تفكر في الذهاب للحانة، ثم تقلع عن هذه الفكرة، لتقرر أن تقضي سهرتها في البيت، تستمع إلى الموسيقى، تسمع صراخ أمها ونديبها، فتخرج بسرعة لتجد أن أخوها المجنون صدمته سيارة وفارق هذه الدنيا، تبدأ مراسم العزاء فتختلي في غرفتها، ينتابها شعور غريب، تسقط دمعة دافئة من عينيها، لكنها تمانع وتتعالى على الدموع، تستهلك المهدّئات وتغطّ في نوم عميق، تنهض مفزوعة ترافقها كوابيس الغرفة المجاورة، تتذكر خطيئتها، تحطّ يدها على بطنها قائلة: أبوك مات، هل تعلم من أبوك؟ هو أخي، لم يكن له أي ذنب، أعلم أنني مذنبة، لكنني لا أريد أن

أكون كذلك لتسامحني، هناك فتاتان داخلي، فتاة تدفع بها الشهوة إلى نزوة ليليّة، وأخرى بريئة لا تدري ما تفعله..

مع هذا الشعور بالندم بدأت النوبات والكوابيس تنتابها كل ليلة، مرت أيام العزاء وذهبت بعدها لإجهاض الطفل بأساليب غير قانونية توسطت لها أحد صديقتها التي تعمل ممرضة في إحدى أقسام التوليد، فأجرت لها طبيبة العملية في بيتها وتقاضت على هذا أجرًا كلّفها كلّ ذهبها، ورهنت سيارتها كي تتمكن من إجراء عملية الإجهاض...

تريدُ فقط أن يمهلها الموت دقائق أخرى لتعود وتقتل نفسًا في نفسها، نفسًا أخرى اقترفت الخطيئة ونفذت كل هذه الجرائم.

مقام:

كلّما أحسست بالجوع وبالفقر أكتب وأبكي وأنام...

أضعت هويّتي واسمي وكل ما له علاقة بالانتماء والأصل، لم أحلِق شعر لحيتي ورأسي منذ أزيد من سنة، أقتات على بعض الخبز اليابس الذي أجده في مكبّ النفايات، أو ما جادت به أيادي المحسنين، لا أحس لا بالبرد ولا بالجوع ولا أريد العودة...

أشعر بالضّياع وأرغب في أن أجدني، أنام فوق الأرصفة تحت أسقف العمارات، في الحدائق العموميّة مع القطط والكلاب أقاسمهم طعامهم، أمدّ يدي أحيانا لأتسول، أنا على هذه الحال منذ أكثر من سنتين، لا أعرف أحدا ولا يعرفني أحد ولا أحد يعلم عني شيئا، في بعض الأحيان أسأل نفسي من أكون وكيف وصلت إلى هذه الحال! فأجدها ما زالت تتذكر، فترتسم القصة أمامي بكل نشيجها وألمها لأسخط على نفسي حينها، أتقوقع وأنزوي أبكي وأبكي أعي السبب، ولا أريد أن أعيه، لا أتمالك نفسي فأضرب رأسي بالحائط علني أنسى لكن الذكرى تعاودني كل مرة بتفاصيل أخرى راغبة في

تعذيبي وخنقي، أنا السّبب في كل هذا لكنني؛ منذ فتحت عيني على هذه الدنيا وجدت أبي الحاج محمد بركات على ذلك الحال مقامرا معروفا يخسر ويربح، يربح ويخسر مات وهو على طاولة القمار، لم يترك لي إرثا، لم يترك لي درهما أو دينارا إلا الدّيون والغرامات...

بعد وفاته دخلت صالات القمار مستكشفا عن هذه اللعبة، جرّبت أول مرة بدافع الفضول أتذكر حينها أني ربحت مبلغ سبعة آلاف دينار غادرت الصالة مزهوا، مبلغ خيالي في ليلة واحدة، أعدت التّجربة في الليلة التالية خسرت ثم أعدت الكرة في الليلة الموالية ربحت...

وتوالت الليالي والسّهرات حتى وجدت نفسي مدمن قمار وخمر وورثت عن أبي ولعه وعادته التي لفظ أنفاسه الأخيرة على طاولتها، خسرت كل شيء؛ عائلتي، زوجتي، أبنائي، مكانتي، أصدقائي، بعدما أفلست وخنقتني الديون عزمت على الهجرة، هاجرت إلى فرنسا وعثرت على عمل بشق الأنفس.. بعدها بأيام عاودني الشغف القديم، قادتني قدماي نحو صالات القمار الفرنسية بعد شهر أوقفوني عن العمل بسبب الغيابات المتكرّرة، لم أعد قادرا على تسديد ثمن الكراء،

بحثت عن عمل آخر لكن أحدا لم يقبل بتشغيلي عنده، أوصدت كل الأبواب في وجهي، كل ما كنت أمتلك حينها قلادة أهدتني إياها أمي في عيد ميلادي التاسع وضعتها على طاولة القمار خسرتها تلك الليلة بكيت فقدتها هي الأخرى وكانت أغلى وأثمن ما أملك، كانت تواسيني حين أتلمسها في صدري أكلمها، أهمس لها، كانت هي كل ما يربطني بالماضي، بجذوري، بعائلتي، بتربتي الأولى، كانت تعني لي كل شيء....

محادثة:

شيء ما يجبرني على تذكر تلك المحادثة الآن، أتذكر تفاصيلها جيّدا، في إحدى الليالي الشتوية الممطرة، المطر ليلتها كان ينهمر بغزارة، صوت المطر محزن، كنتُ أبكي كثيرًا وأنا صغير في حضن أمي وأقول لها لماذا يبكي الله! هل أزعجته لأنني ضربت ابن الجيران بالأمس؟ أم لأنني سرقت بعض الدنانير من الدكان المجاور لبيتنا؟ أم لأنّني سرقت التفاح والمشمش واللوز من بستان عمي الطاهر؟ أم لأنني ذهبت ببنت الجيران بعيدًا نحو الحقول فحين قبلَتها بدأت بالصراخ فتركتها هناك وهربت، عندما يهطل المطر كنتُ أعترف بكل شيء لأمي دون أن أتفطن لذلك، كنت أعتقد أن قطرات المطر هي دموع الله تنهمر من السماء الواسعة، بدأ صوت المطر يهدأ قليلًا، كنت أمسك هاتفي وأتسكع في شوارع الفايسبوك، أتطفل على هذا العالم العنكبوتي، وأزعج النساء بطلبات الصداقة والرسائل وفي حالة ما لم تجبني إحداهن أنهال عليها بالسب والشّتائم، برقت عيني عندما وصلتني رسالة فتحتها بسرعة..

- أهلا أكرم أنا ريم تفكرتني..

عادت بي الذّاكرة خمسة أشهر للوراء إلى تلك الليلة الحمراء التي اكتشفت فيها سر هذه العذراء، جسد مُغرٍ، وجنة خصبة وكل قطعة

منه تجبرك على تذوقها تذكرت أنني أغرقتها بالقبل ليلتها، مشطت جسدها، وكنت أعلم جيّدا أنه حقل مؤثث بالألغام، فجرت قنابل جسدها، وخلعت عنها ثوب العذرية، جعلتها تغرق في شهوتها لأكثر من مرة، جعلتها تهتز وترتج كأرض ضربتها هزة زلزال عنيفة، كانت تتلوى كأفعى كوبرا على فريستها، وترتعش وتنعشها نشوة غريبة، مارسنا الحب في تلك الليلة الصيفية تحت سقف السماء في بيت بلا سقف، هي خرابة، كنت أجتمع فيها أنا وأصدقائي ونخطط لمشاريعنا المستقبلية، وكثيرًا ما كنا نقضي ليالي الصيف هناك، ندخن ونتعاطى المخدرات ونحتسي الخمر العتيق، استهلكت الكثير من الأدوية ليلتها؛ الصّاروخ، الحلوى، البريڤابالين، كانت تلك أول ليلة أستنشق فيها الكوكايين، لم أكن حقا أدري ولا أفهم ولا أعي ما أقوم به، نهضت صباحًا لأجد فتاة تغرق في دمها، ونتوسد ذراعي، وتحتضنني، من هذه؟ ماذا فعلت؟ وأين أنا؟

نهضت لأستكشف المكان وعرفت أنني في الخرابة، أو كما كنا نسميه المقر، لكن حقًّا... من هذه الفتاة؟ وما هذا الدّم؟ جلستُ على كرسيّ قديم ورحت أفكر وأتذكر ما حدث، تذكرت أنني أثقلت في الشرب البارحة، واستنشقت الكوكا لأول مرة في حياتي، واستهلكت الكثير من الحبوب، نهضت الفتاة لتجد نفسها بتلك الوضعية، عارية كيوم أنجبتها أمها، عانتها مفضوحة والدم منتشر على

جسمها، عرفت أنني اغتصبت عذريتها بكامل إرادتها، غيَرت ملابسها وجلست أمامي دون أن تنطق بكلمة، تناولت سيجارة من سجائري فلم أمنعها، تلمستُ جيبي لأجد ثلاثة آلاف دينار رميتها لها، وغادرت إلى البيت اغتسلتُ، وغرقت في نوم عميق وعدت لممارسة حياتي العادية بعدها، كنت كالخفاش لا أخرج إلا ليلًا من البيت، أبيع ما في جعبتي من مخدرات وأعود لأختبئ في غرفتي، كنت ألعب مع الشرطة لعبة المطاردة المسلية، أتذكر أنني عندما كنت صغيرًا كنتُ معجبا بالمهربين والخارجين عن القانون وكانوا شخصياتي المفضلة في الأفلام، كنت أشعر بالفخر عندما يناديني أصدقائي بابلو إسكوبار، لا أفوت مشاهدة أفلام المافيا لدرجة أنّني كنت أقلدهم في كل شيء، تسريحات شعرهم، ملابسهم، طريقتهم في الكلام، تربيتهم للكلاب، أسلحتهم، حتى سيارتي القديمة من نوع 505 سانك سون سانك كانت رمادية ثم لونتها بطلاء أسود وعلقت على زجاجها صور بابلو إسكوبار وبوب مارلي، كنتُ مولعا بالمافيا وكنت أريد أن أكون واحدًا منهم، ومثّلت ما يقومون به على مسرح الحياة...

عدت للمحادثة

- أهلا ريم وش أحوالك توحشتك، كنت أريد أن أعود لتلك الليلة لكن بعدها حذفتُ ما كتبته وقلت بتعالٍ:

- أهلا وش راك أختي

- أختك هههههه هههههه؟!

على ما نظن ما عرفتنيش

- لا، لا عرفتك كانش ما خاصّك؟

- والو ، حبيت نعرف وينك

- هههههههه تعرفي بلي جامي ڤلت لبلاصة إلي راني فيها لدواعي أمنية

- كيما خليتك ديما موسوس وأي حاجة تحسبلها حساب وماتمدش الثقة...

- أرسلت ملصقا مبتسما

- أكرم حبيت نحكي معاك في موضوع

- خير إن شاء الله اتفضلي....

- أنا حامل

- هههه يتربى في عزك بصح أنا واش يهمني

- أنا حامل منك

- هههههههه هههههه من نيتك؟

- إيه في الشهر السادس ولا نسيت وش درت هاذيك الليلة...

شعور غريب يختلجني برودة اجتاحت جسدي، أسرعت لأغلق بيانات الهاتف وحذفت المحادثة، تأكدت أنني في ورطة، تأففت كثيرا، وقفت فتحت النافذة ورحت أدور في الغرفة كالمجنون، أدخّن بامتعاض شديد... أدور حول الغرفة، ورحت أمشط الغرفة جيئة وذهابًا، قبل أن أخرج لففت سيجارة حشيش، نظرت إلى الساعة إنها الثالثة فجرًا، الأمطار في الخارج مازالت تهطل بغزارة، ورياح عاتية تكاد تقتلع نوافذ الغرفة من أماكنها، لبست معطفي الأسود الداكن، وتناولت وشاحي الأبيض، لففته حول عنقي وهممت بالخروج، كان الجو باردًا والأمطار تنهمر بشدّة، الريّاح العاتية تزيد من سرعتي، أتذكّـر أنّني كنت أزن ثمانين كيلو غراما، أما الآن فوزني لا يتعدى الستّون، عظامي أضحت هزيلة كعجوز في العقد التسعين، كانت آثار المخدرات جلية، فعيناي تحفهما زرقة مخيفة، كل شيء في المدينة مُغلق، كنت أمشي بخطوات متثاقلة، كنت ألعن تلك الليلة النحس، وتلك الشيطانة بقرنين في جسد ملاك طاهر، كان جسدها الممشوق أرضا لزرع ذرات الحب، آلهة العطف والخصوبة...

لم أفكّـر في هذا طويلًا، كنت أعلم أنني في ورطة حقيقية، وقفت لبرهة من الزمن، ثم قررت أن أدلف للحانة، جلست على كرسي في زاوية مظلمة لا يراني فيها أحد، لأنني لم أكن في حالة تسمح لي

بالحديث، طلبت من النادل أن يأتيني بقنينة شراب، شربتها إلى آخر قطرة فيها ثم هممت بالخروج، لففت سيجارة حشيش أخرى، ثم عدت البيت ركبت سيارتي وقررت أن أبتعد عن المدينة، اتصل بي أحد أصدقائي قائلا:

أن الشرطة أمسكت فلان وقال أنه يعمل عندك، فعرفت أنني مطارد، والبقاء لمدة أطول في هذا المكان أمر خطير جدًّا، يجب أن أغادر المدينة، اتصلت بريم ورتبت موعدًا معها في ولاية أخرى تبعد عنا حوالي ست مئة كيلو متر فوافقت، كان الطريق طويلًا وموحشًا ومخيفًا، وكلما وجدت شرطيًّا واقفًا في وسط الطريق تلمست قلبي، كنت أسوق بسرعة خيالية...

توقفت فقط لأملأ خزان السيارة بالبنزين وأكملت طريقي، كانت سجائر الحشيش الرفيق الوحيد في تلك السفرة، دخنت كثيرًا، وفكرت في حلول كثيرة للخروج من الورطة التي أوقعتني بها هذه الفاسقة، وصلت في حوالي الساعة الواحدة زوالًا، فكّـرت في الذهاب للفندق، لكنني أقلعت عن هذه الفكرة بعدما خُيِّل لي أن الشرطة تتبعني، قررت أن أستأجر شقة...

وجدت أحد المؤجرين، وبعدما عرف أنني من خارج المدينة رفع سعر الإيجار إلى ثلاثة أضعاف، كنت أدرك أنه يخدعني، فهي مجرد شقة في عمارة آهلة للسقوط، لكنني وافقت، لأنني سأكون في مأمن

عن أعين الشرطة التي تترصدني، فكمية المخدرات التي حجزوها عند صديقي قرابة عشرين كيلو غراما من الكيف المعالج، سيُحكم عليه على الأقل بعشرين سنة سجنًا نافذًا، ولم أكن مستعدّا لأن أسجن، وقد قلت لهم مرارًا أنكم إذا وقعتم في يدي الشرطة فأنا لا أعرفكم، ومن دخل هذه التجارة عليه أن يكون مُستعدا لأي شيء، بيناتنا سلعة ودراهم، أنا ماعنديش صاحب، صاحبي جيبي، تتحكم ما تعرفني ما نعرفك واضح...

كانت الغرفة مجهزة بحمام، وتلفاز قديم، وسرير وكرسي وطاولة، كانت الأسعار هنا ملتهبة، لأنّ الجامعة قريبة من هنا، فالجيران كلهم كانوا طلبة جامعيين، غيّـــرتُ ملابسي، ثم اتصلت بتلك السّاقطة...!

- ريم وينك أني قريب نوصل أغلقت باب الغرفة، وذهبت إلى المكان الذي اتفقنا أن نلتقي فيه، كانت خطواتي متثاقلة، وكلما لمحت شرطيا غيرتُ الطّـــريق، كان المكان في وسط الغابة هادئًا، تفحصت المكان جيّدًا، رسمتُ أكثر من خطة، وطريق للهروب، لم أترك أي ثغرة لعنصر المفاجئة، حسبت حسابًا لكل شيء تقريبًا، لم يكن لدي ما أقوله، إلا شيء واحد، عليك أن تجهضي فقط ، وإلّا...

تقدمت بخطوات سريعة نحوي، كانت تلبس سروال جينز ضيق يعرض جميع مفاتنها، وقميصا أبيض اللون، مزركشا بالورد الأصفر،

جلست أمامي ولففت سيجارة حشيش، سلمت عليّ ولم تنبس ببنت شفة، رفعت رأسي قليلًا ونظرت إلى عينيها قائلا:

- عليك أن تجهضي هذا الطفل

ابتسمت وقالت:

- وإن لم أفعل. ؟

الإجهاض وأنا في مرحلة متقدمة من الحمل خطر عليّ وعلى الولد..

كنت أريد أن أقول: إلى الجحيم هذا لا يهمني...

اختلست النظر إلى بطنها، الإحساس الوحيد الذي انتابني حينها هو البغض المقيت، أردت أن أنقض عليها وأُخرج سكّينا وأغرسه في بطنها لتخرس للأبد...

سكتتُ برهة ثم قلت:

- ما يهمنيش، يسموك تطيحيه الطفل وإلا....

- وإلا واش أكرم؟

وقفت وغادرت المكان

ليلتها ذهبتُ إلى الحانة وأثقلتُ في الشّرب، لففت أكثر من عشرين سيجارة حشيش ونفثت دخانها في وجه الدنيا، عدت للغابة التي

التقيت فيها تلك المومس، أخذت معي فأسًا وحفرت حفرة تسع ثلاثة فيلة، دعوتها في الصباح لنفس المكان، انقضضت عليها، ربطتها بالحبال وضربتها على رأسها بالفأس فأغمي عليها، ثم ضربتها على بطنها حتى خرجت قطرات الدم من فمها، حملتها ورميت بها في تلك الحفرة العميقة ورددت عليها التراب...

دفنت الحيّة، المهم أنني دفنت جريمتي، دفنتها ولا أعلم إن كانت حية أو ميتة، جلست على قبرها لففت سيجارة حشيش، وفكرت في الوضع الذي أنا فيه، في التهم التي يمكن أن توجهها الشّرطة إليّ، في الجرائم التي اقترفتها، في الحكم الذي لن يكون أقل من الإعدام.

ما الحل؟

تذكرت أنّني مررت بشباب بجانب العمارة التي أسكنها وسمعتهم يتحدثون: لفلوكة راح تخرج السمانة هاذي والي حاب يحرق 20 مليون يمدها لعصام، عدت لأجدهم في نفس المكان.

- اتفضل خو واش خاصك

- لا لا خويا حبيت نسقسيكم برك، كنت فايت ڤبيلة وسمعتكم تحكيو على فلوكة تاع حراڤة راح تخرج السمانة هاذي...

هرب أحدهم، فقد شكّ في كوني شرطيّا

- اتفضل أقعد خو أك النهار شفتك تدور في ڤارو زطلة، أعطينا سمسوم ندوروه.

لففت سيجارة وأشعلتها له

- لذرك ما ڤلتوليش شكون المسؤول على لفلوكة...

قام ذلك الشاب بمرافقتي إلى أحد البحّارة:

- رايس عصام

- واه موح خويا أرواح

- وش راك

- الحمد لله

- شكون السيد الي معاك

- واحد حاب يحرڤ

زمّ الرايس عصام على شفتيه وقال مرتبكا:

- هات عشرين مليون وغدوة ل12 تاع الليل تديماري لفلوكة

فكرتُ مليًّا، فوجدت أنه الحل الأنسب، فلا مفر لي لأن الشرطة إذا أمسكت بي، سأقضي حياتي كلها في السجن.

- قلت بهدوء: الليلة نتلاڤوا هنا ونمدلك قضيتك

ودعناه وعدنا لنجلس تحت سقف العمارة، تحدثنا طويلا ثم عدت إلى الغرفة جمعت ملابسي وجهزت عشرين مليون، كما قال الرايس عصام وعندما عدت في الليل إلى ذلك المكان، وجدته بانتظاري، ناولته النقود وعدت مسرعًا

- ما تنساش غدوة ل12 تاع الليل نلقاك هنا ما جيتيش راحت دراهمك

- مريقلة

فكرت أنني قبل أن أغادر علي أن أذهب وأزور ريم في قبرها مشيت بخطوات هادئة خشية أن يتبعني أحدهم، فوجدت أن خاتمها وقع منها أخذته ووضعته في جيبي

وقفت على قبرها قائلا:

- اسمحيلي... فقط كلمة واحدة وعدت مسرعا

غرقت في نوم ثقيلٍ...

لأنهض في حوالي السّاعة الرّابعة عصرًا، نظرت إلى الساعة ثماني ساعات فقط تفصلني عن مغادرة هذا البلد البائس، كما كنت أحلم وأنا صغير...

سألتقي أخيرا المافيا الإيطالية، وفجأة سمعت شخصا يطرق الباب لم أفتح، حطموا الباب ودخلوا، كدت أرمي بنفسي من الطابق الخامس إنها الشرطة لا بد أنهم عرفوا كل شيء.

التّمتمات المتجمّدة للغجري الأخير:

كان تونينو بالياردو منزويا كعادته في غرفة بيته التي تطل على البحر، يراقب السفن وهي تغادر الميناء وتشيعها النوارس نحو وجهة يجهلها، يظل يطاردها بعينه حتى تتوارى في الأفق ويتمنى لو كان على متنها ليسافر بعيدا عن هذه الغرفة، وأن يهرب من الصمت الذي يشبه الموت.

مرض الصّمت الذي اجتاحه فجأة واستمر عمرًا كاملًا، أن يقضي الإنسان حياته صامتًا لا يتكلم، لا ينطق بكلمة، كما الأموات لا يختلف عنهم إلا بشيء واحد وهو العيش في غرفة لا تختلف كثيرا عن القبر، تذكر أن الغرفة كانت أكثر حياة، وكان صوت القيتار في زمن مضى يدب فيها حيوات كثيرة، غرفته التي هي الآن تشبه الصمت والبكاء الذي يندفن فيه الجميع بعد فاجعة، لكنه استمر فيه للأبد مهما حاول الكلام، فهو يستعصى عليه، كلامه لا يتجاوز حلقه فيتجمد هناك، ولعل غرفته هذه هي كل شيء بالنسبة لإنسان صار أبكمًا..

هي ليست مجرد غرفة نوم فحسب، إنّها مساحتي الخاصة، أنظر إلى سقفها وألُون أحلامي التي تصلُ إلى السماوات الواسعة، أنا لا أكذب عندما أقول أنها أكثر الأماكن الضيقة اتساعا، أمارس فيها

سذاجتي، وطقوسي النيلية الغريبة، أتكئ على جدرانها خوفًا علي وعليها من السقوط، نافذتها تطل على عالم خاص لا تعرفون عنه شيئا، ألامسه بعيني، أرسم على جدرانها لوحات تمازج ألوانها، لترسم الحياة كما أريدها، أبحث داخلها عن هويتي، عن حريتي، أمارس حماقتي بطلاقة، لا يمنعني شيء عن التخيّل، عن الرقص داخل فضاء لوني، ظن صديقي أنني جننت، عندما اتصل بي في إحدى المرات حينما كنت كائنا يقدر على الكلام، فقلت له أنني مصاب بحمى التفكير ولا أستطيع الخروج من هذه الغرفة وأغلقت الخط، لأغرق في دوامة من الأفكار اللامتناهية، أبحث عن خيط يوصلني إليّ، إلى حقيقتي النسبية في ذلك العالم، تبتلعني العاصفة وأغرق داخلها ألونُها بالدموع، تنسحب لتتحول فجأة إلى سحب لا تتجاوز الأسقف، لكنها تتجاوز الموقف الذي أنا فيه إلى عالم يعج بقهقهات مجهولة المصدر وتمتمات لا يفهمها أحد..

بقيتُ داخلها كما لو أنني شخص أظلَ الطريق، لكنه لا يريد العودة، ينسحب هذا الفضاء بمجرد أن أفتح النافذة، يلامسني الضوء، أريد أن أتحسسه، لكنه ينزلق بين أصابعي، كالنور في دواخلنا، يضيئها لكننا لا نستطيع ملامسته، نقترب منه فتنكسر أشعته في أجسادنا، كأنّه لا يريد أن نقترب منه، له حياته الخاصّة، مساحته الخاصة في أجسادنا وأرواحنا، لكنه ليس ملكًا لنا ولا ملكا لنفسه، هو ملك للجميع،

كالسماء تماما نبني على سطحها أحلامًا، لكنها تبقى ملكًا للرّيح، حياتنا ملك للعواصف.

الإنسان كائن يملك كل شيء، لكنّه لا يملك شيئا بالمقابل...

ينظر إلى السّماء، الشمس، القمر، النّجوم، السّحب، الشّهب، الأضواء التي تبعثه، الظلام الذي تطوق به المدينة، المطر، الرّعد، البرق معجزة السماء والنجوم التي تترصع بها فوق رؤوسنا الضوء الذي يتسرب منها، ويهذي الطيف فيمسك بها فيتناثر ولا يمسك شيئا.

لا شيء، لا شيء، ويحاول أن يحتفظ بحفنة الضوء فتهرب منه، وتسلك مسارات لا متناهية نحو الفراغ، نحو السماء، وتضيع في اللاشيء، فيكتب ليطارد شبح الضوء في مساراته التي لا تعرف الاستقامة، ولا تستوي على شكل، يرسم شيئا أشبه بمصباح ليخبئ الضوء داخله ويكتب...

السماء أشبه بأحجية، اللون الوردي الذي يتوارى خلف السحابة على سفح الجبل، كزهرة ربيعية متوحشة، أتتبع طيف هذا اللون المخيف وأغرق في أشعته، أمشي فقط أتتبع أشعة هذا الضوء، فيلفحني النسيم ويداعب جسدي الهزيل، أقترب من هذا الضوء الباهت شيئًا فشيئًا، أخترق سكون الطبيعة وأطرد خضرتها، تظل عيناي مشدوهتين إلى

الضوء الذي ستحال إلى قرمزي، أبطئُ في خطواتي وأظل متأمّلًا، وأبحث عن الشيء المتخفي خلف هذا الجبل، هذا الكائن العملاق أتساءل هل يتحدّث؟ كيف له أن يتحمل ثقل الحجارة التي يحملها فوقه؟ خطواتي تتسارع خشية أن أُضيع الضوء، يجب أن ألحق به، لا أفكر في شيء آخر، المهم أن أتتبعه إلى آخر خطوة يُغادر فيها هذا العالم، الشّمس تكاد أن تغيب أسرع خطواتي أكثر، أصل أخيرًا إلى سفح الجبل، أتعمق أكثر في لغز هذا الطيف، وأحاول أن ألمسه وأداعبه، لكنّه ينكسر فجأة في جسمي، كأنه يحذرني من الاقتراب، شيء جميل، لكنه متوحش ومنعزل تماما، هذا الحس الغرائبي في الطبيعة، هذا الحسّ المجهول يجبر الإنسان على التّــأمّل، أغرق في دوائر ضوئية لا متناهية، وأتساءل هل هناك ظل للخيال؟ أرسم جناحًا لطائر وأغرق في كومة من التفاصيل، وأكتب مقالًا على الحرية، تنتقل جمجمتي بعيدا عن هذا العالم، تبتلعني الذكريات فأنام في جوفها، أُغمض عيني، وأتنفس هواءً وضوءً أسودًا، يحفني السواد من كل الجوانب أستعيد الماضي وأحزانه وآلامه، وأحاديثه المرهقة، تزورني السحابة مرة أخرى، وتبللني بمطرها، أصحو من هذا الكابوس، أفتح عيني لأجد أن الظلام قد خيم على الجبل، يمس رئتيّ هواء ثقيل، وأقرر العودة إلى البيت بخطوات هادئة ومتثاقلة...

كان تونينو بالياردو يمضي أيامه في الكتابة، ومشاهدة الأفلام السينمائية، وقراءة الكتب، والعزف على القيتار، والكتابة، والأيام تمر ثقيلة، وتعيد نفسها بشكل روتيني رتيب، كان يكتب فقط من أجل أن يكتب، ولا يعي هذا الجنس الأدبي الذي يكتب فيه، ولا يهمه أن يعرف، لأنه لم يكن يفكر، أو يريد أن يصبح كاتبا، كان فقط يصف ما يخالجه بعد مرض الصمت الذي لم يجد له دواءً برغم كل محاولاته الحثيثة، لم يتعافَ منه، فلم يفهم الأطباء المرض الذي أصابه، وبعد كل الأدوية والتحاليل التي طلبوا منه إجراءها تأكدوا أنه لا يعاني من مشكل عضوي، ولم يجدوا سببًا لهذا البكم والصمت الذي أصابه فجأة، وأرجعوا ذلك إلى مرض نفسي أو نوبة نفسية، ربما سيتعافى منها مع مرور الزمن، لكنه لم يتعافَ برغم كل المحاولات والأبحاث الطبية والسفر من مدينة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، فقد تونينو بالياردو الأمل نهائيا من شفائه، ولجأ صمته إلى الصمت، وانتهى في غرفته يعيش حياته متواريًا على العالم، كان يمضي كل وقته في الكتابة، وفي التّأمل، في الرسم، في العزف على الغيتار، لكنه وجد أن له رغبة غير مسبوقة في الكتابة والقراءة، وعرف أن ما أصابه يُشبه في جزء منه، وإلى حد بعيد شخوص رواية العمى لجوزيه ساراماغو، كان يكتب كلما أحس بالملل، أو له رغبة في الكلام، كان يُدوِّن كل ما يفكر فيه دون أن يعي سبب ذلك،

دون أن يكون له دافع للكتابة، أو هدف منه (كلامه الذي لم يقله أو الذي لم يستطع قوله أو حال المرض دون قوله)

كتب أجزاء متفرقة نصوص غزلية، كلمات بنفس القافية والروي كما لو أنها شعر، محاولات لوصف الحالة الاجتماعية، ما يدور في باله من خواطر، قراءاته لمجموعة من الكتب والروايات التي قرأها، رحلاته وأسفاره، فرقة جيبسي كينغ "ملوك الغجر" التي كان ينتمي إليها في يوم من الأيام، وكان واحدًا ممن أسسوا فرقتها الموسيقية، جيبسي كينغ وتعني "ملوك الغجر"، وهي فرقة موسيقية من بلدية آرل و مونبلييه في جنوب فرنسا الذين يؤدون لأغاني الفلامينكو بلهجة أندلسية إسبانية، فعلى الرغم من أن أعضاء المجموعة قد ولدوا في فرنسا، لكن أغلبهم من خيتانوس غجر إسبانيا، الذين فرّوا من كاتالونيا أثناء الحرب الأهلية الإسبانية سنة 1930، وهو اليوم يتابع أعمال الفرقة ونشاطاتها، من بعيد يحزن لحزنها ويفرح لنجاحها في المحافل الدولية، وفي المهرجانات، والحفلات الموسيقية، ويكون أول من يشتري ألبوماتها الموسيقية فور صدورها، تطورت الفرقة كثيرًا عن السابق، وتغير أعضائها وموسيقيها، لكنها حافظت على طابعها الغجري والأندلسي في آن واحد، كان واحد ممن يعزفون على القيتار يومها؛ حيث كانوا يجوبون شوارع فرنسا وأزقتها، ويبعثون فيها شيئا من موسيقى الفلامنكو، أما الذكرى الوحيدة التي ظلت عالقة بذاكرته إلى

اليوم، هي أنهم التقوا شارلي شابلن في إحدى الحفلات الموسيقية، شارلي شابلن الذي يعشقه الملايين، أضحكهم حين سمع موسيقاهم وأهازيجهم، ورقصاتهم الغريبة، ترقرقت عيناه بالدموع، صفق وأشاد بهم يومها، وحضر حفلاتهم الكثير من الشخصيات الفنية والثقافية والسياسية المعروفة، والتقوا بهم وجهًا لوجهٍ كستالون سيلفستر، شرنازنافور، سيلين ديون...

لكن الذّكرى الذي ستظلّ تسكنُ أفئدتهم، وتبعث فيهم جزءًا من الرضا بما حققوه في حفلاتهم أن بريجيت باردوا حضرت يومًا إلى حفلاتهم مُتنكرة، هزيج الناس يتعالى في قاعة الحفل ويصرخون أن المرأة التي يرونها ملامحها تشبه ملامح بريجيت باردو، لكنهم لم يكونوا يعرفون أن بريجيت باردوا بشحمها ولحمها، وكامل ألقها تزين بحضورها ذلك الحفل الموسيقي الصاخب الذي أحيته الفرقة حينها، بعد كل السنوات التي قضاها تونينوا بالياردو عازفًا ومغنيًا في فرقة جيبسي كينغ ها هو اليوم يتوارى خلف صمت مهيب، والأيام تمُر ثقيلة رتيبة، تجرده من كل شيء، من الغناء، من الحلم، ومن الصوت، ومن الكلام، وتجرده من ذاته، ومن الفن، ليختبئ أخيرًا تحت ثياب الموت وسيكتشف جوابًا على سؤاله: هل سيعود له صوت بعد الموت؟ وما فائدة هذا الصوت حينئذ؟ وهل سيغني للموتى في قبورهم؟ وهل يتكلم الصّمت؟

هناك.. هناك بعيدا في مغاور الصمت كلام كثير يجب أن يقال ويحكى، لديه كثير ليقوله وكثير ليحكيه، سيظل يعزف ويغنّي من طلوع الشّمس إلى غروبها، وسيغيب هذا الصمت الذي تلبسه إلى سنوات كلعنة أبديّة... وهذه الوريقات التي سأعرضها عليكم تباعاً، هي كل ما تبقّى من روح فنّان آثر الصمت أو آثره صمته، هذه الوريقات التي سأعرضها أمامكم هي روح تونينو بالياردو الفنان الصامت، صوت الصمت وكلامه الذي لا ينتهي، وقد عنونها "التمتمات المتجمدة للغجري الأخير"

تونينو بالياردو الشاعر الفيلسوف:

...

نخيط بخيط إبرة

نسيجًا لفكرة

نحيبًا لذكرى

موج الفكرة ينساب حبرًا

تُعلن حربًا

تلعن عربًا

تنطق عبرًا

تنزاح ريحها عطر

أبحر وحرب فكرة

تخلق بشرًا ينفث شرّا وشررًا

تصنعُ عالمًا ينثر العلم دررًا

ترسم حالمًا يتخيّل الحبر بحرا

يلفظ من موج الأدب سحرًا

شاعرٌ يضمد جرحه بجمرة، وينشد شعرا

كاتب ينزف لا وعيه نثرًا

تقف بكاءً على أطلال الموجة مدًا وجزرًا

تونينو باليارد الرجل العاشق:

سأعبر

على حدود شفة

كلاعب خفة

في قارب خشبي إلى الضفّة

أُلف رأسي ألف لفة

أبحثُ عني انكسرت بقاربي دفة

فانحصرت فرص النجاة في كفة

شهيدُ عينيك غرق ولقي حتفه

وهذا نص آخر كتبه تونينو باليارد:

ترتمي في حضني بحثًا عن شيء تُرقع به ما تبقى من جسدها المتورم، من روحها الضائعة، أظن أنها ترمي بهذا الجسد الممشوق في هوة سحيقة، فهذا الحضن حفرة باردة تشبه القبر، لم يعد صالحا للمواساة، تبللني بدموعها، أحسها مجرد ماء فقط، حقا لم أعد أقوى على الإحساس بأي شيء، لا أدرك ماهية الإحساس، أنا الآن كائن مجرّد، كسطح طاولة ملساء، لنقُل أنني تمزقت إلى أشلاء، أصبحت كائنًا عضويًّا، أنا جسد غادرته روحه بلا رجعة، لا أصلح للحياة، والحياة لا تصلح لي، أمضي أيام طويلة دون أن آكل لقمة واحدة، أرافق القطط والكلاب المتشردة في الشّوارع، أنا لست الشّخص المناسب وحضني ليس المكان المناسب، لترتمي داخله، فقد أصبح كما لو أنّه كرة ثلج باردة، رمت بنفسها داخل متاهة، دُونت على جدرانها أحجيات الزمن الغابر، رمت بنفسها في ضباب موحش يحفه السّواد، ستغرق داخلها لتصبح كائنًا ضبابيًّا غامضًا، المشكلة أنها ستخرج وتنسى ما كانت عليه ستخرج عديمة الإحساس، ومن رمى بنفسه في

جوف العدميّة، لن يعود إلّا وهو كائن أسود يشبه اللون والليل ولن يصلح للحياة بعد ذلك، قلت أنّها رمت بنفسها في هوة سحيقة تسمى القلب ...

تونينو بالياردو الغجري الأخير:

شظايا الفراغ تُحاصر عتمتي، وأحاصرُ شبحًا يحاصرني، أدخن قنبا هنديا وأؤنس نارًا تلازمني، ومازالت رئتي تعاتبني، ومازلت أسأل نفسي وتسألني، هل أنت من أنا؟ وهل أنا منّي؟ ألامس بأناملي حبرًا أسحره ويسحرني، وهذا النسيم يلامسني، أتحسّسه فيلهمني، وهذه نفسي تعود لتسألني هل أنت منّي؟ وهذا سرب ذكريات يهاجمني، وهذه خيالات تمر بي وتحدثني بصوت خافت، أمازلت على العهد تتذكرني؟ وهذه سطور التاريخ أكتُبها، وهذه قصيدة تكتبني، وهذا طيف حبيبتي ترتسم على ثغرها ابتسامة تقبلني فتُمتعني، وهذا عرف عن طيفك يمنعني، ومازالت هذه الأفكار تقرعني فتمتعني، ومازالت نفسي تسألني هل أنت مني؟ هذا أغلب الظنّ أنّني مني؛ فالأدب يخلقني والتّجربة تصنعني.

غزل الغجري الأخير:

لا أفهم هذه الحركة الإنسيابية التي تجبرني على القرب منك، والبعد مني، تعويذة سيريالية تمتزج بالواقع إلى حد ما، لوحة غريبة تمازج

فيها الألوان مكونة خليطًا متجانسًا، ترسم أعلاما لأوطان، ترسم سحابًا بلون الزرقة تبكي بحرقة، بشهقة على متن سطور الورقة، تنزف الأقلام ألوانا، دموعا على عتبات الأحلام، أريد فقط أن أنام، أن أقمع خيالك في خيالي، أتكئ على السرير، كم هو مؤلم هذا الشعور...

تريد تناسي شيئا ما، لكنّه يعود ليزورك في الحلم، يزعجك، يقلقك، يحتل هدوءك، يطاردك، أستطيع أن أقمع وجودك في الخارج، أن لا أنظر إليك، لكن أن أقمع وجودك داخلي هذا أمر يقرب إلى الاستحالة، يمكن أن أقلع عن التفكير فيك، وأشتغل في شيء يلهيني عنك، لكن بمجرد أن أضع رأسي على الوسادة، حتى يزورني طيفك، لا يمكن للإنسان أن يكبح أحلامه، شيء خارج عن نطاقه، أستطيع أن أطردك من مخيلتي من وقائعي اليومية، لكن من الحلم هذا شيء يفوق قوانين الفيزياء، وحتى علم النفس الذي يهتم بغشاء اللاواعي للإنسان، لا يستطيع أن يتجاوز ما بعد خط أبيض وهمي يسمى الحلم ...

أستطيع أن أبعدك عني، لكن أن أخرجك مني فهذا ما لا أستطيع فعله ولا أقدر عليه حتى وإن أردت، فالفيزياء تنتهي عند بزوغ فجر الميتافيزيقا رغمًا أنّ الأولى جزء من هذه الأخيرة... أبحثُ عن ظلك، عن طيف خيالك في أعين الشارع، في صدر قصيدة، وفي قرن شيطان شاعر، عيونك المقدسية شرائع أقوام شعائر عشائر، خيمة

شعر وشعر مجلس شرعٍ، مسجد تقيم الصلاة شفعًا ووترًا وليالٍ عشر، أبحث عنك حيث أجدني أجدك، هنا أقمنا العهد وبدأنا العدّ، ودعونا "أحد أحد" بإذنه لن يقطع وصالنا أحد.

...

على شفا قبلة ونزوة على بعد خطوة من الوقوع في هوة، نظرةٌ خاطفة إلى كوكب عينيك، حيث تختزل الكواكب، وترسو المراكب، تسكنني الرهبة، ويسكنها الإمام، والكاهن، والراهب.

عينيك تأشيرة سلام واستراحة محارب، في كوكب عينيك تنطوي جميع المذاهب، على حدود عينيك تهرب القصيدة، ويُعتقل الشّاعر، على شواطئ عينيك يُكتب نصُّ حربٍ وحبٍّ، ويُغتال كاتب الأدب بحثًا عن نصٍّ في عينيْ لصٍّ...

الفهرس

الإهداء:..... 5

الرّقصة الأخيرة: 6

النّظرة الأخيرة: 10

اللّمسة الأخيرة: 14

وخلق الإنسان ضعيفا:..... 16

نسيان النّسيان: 23

فراشة وأكثر من لون: 27

الرّجل الغريب صاحب اللّحية الكثّة:..... 43

الوحش السياسي: 51

من أنت؟ 56

باخرة سانتا ماريا ديجار: 59

الحقيقة جزء من حرائق هذا الوطن:..... 63

الجسد وطن آخر:..... 69

مدينة السّحاب:..... 73

شبح الموت: 77
مقامر: 80
محادثة: 83
التّمتمات المتجمّدة للغجري الأخير: 95